شج رأس التاريخ

(تجليات التواصل الفعال)

ديــوان العـرب للنشــر والتــوزيع

عنـــوان الكتاب: شج رأس التاريخ
اســـم المـؤلف: د. محمد فتحي عبد العال
التصنيف الأدبي: (تجليات التواصل الفعال)

رقـم الإيـــــداع: 14982 / 2024

الترقيــم الدولي: 5 - 978 - 998 - 977 – 978

التدقيــق اللغوي: د. هبــة ماردين
تـصـميم الغلاف: شيماء منـــير
التنسيق الداخلي: محمد وجـيـــه
رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد
تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

شج رأس التاريخ

(تجليات التواصل الفعال)

د. محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع

"ولْيَكُن نَظَرُكَ في عِمارَةِ الأرضِ أبلَغَ مِن نَظَرِكَ في استِجلابِ الخَراج؛ لأنَّ ذلكَ لا يُدرَكُ إلّا بِالعِمارَةِ، ومَن طَلَبَ الخَراجَ بغَيرِ عِمارَةٍ أخرَبَ البِلادَ، وأهلَكَ العِبادَ، ولَم يَستَقِمْ أمرُهُ إلّا قَليلاً."

***الإمام* أبُو الحَسَنْ عَلِيُّ بْنُ أَبِيْ طَالِبٍ الهَاشِمِيّ القُرَشِيُّ**

"صَاحِ هَذِهْ قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرُّحْـ

ـبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ

أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ

ـدُ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

سِرْ إِنِ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْدًا

لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ"

أَبُو اَلْعَلَاءِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ اَلْقُضَاعِي اَلتَّنُوخِي اَلْمَعَرِّي المعروف بأبي العلاء المعري

"تأملْ في الوجودِ بعينِ فكرٍ * ترى الدنيا الدنيَّةَ كالخيالِ
ومن فيها جميعاً سوفَ يفْنى * ويبقى وجهُ رَبِّكَ ذو الجلالِ"

محمد بن أحمد بن عبد الله الرومي المعروف بماميه الشاعر

"لا تتصور أنّ حكمي مبنيّ على اعتبارات دينيّة، أنا فوق هذه الاعتبارات، فأنا لا أعتبر نفسي في سياستي مسلمًا ولا مسيحيًا، ولكن بما أنّني أستمدُّ نفوذي من الشهرة التي أتمتع بها وحكم أمتي، وإذا تعاهدت مع الغرب قضيت على نفسي"

محمد علي باشا في رسالة إلى سكرتير القنصل الفرنسي سنة 1830م
ومنشورة في عدد مئوية محمد علي بجريدة الأهرام سنة 1949م

إهداء

إلى أختي العزيزة الأستاذة "أمنية فتحي عبد العال" والتي حملت على عاتقها مهاماً كثيرة في سبيل إنجاز الكثير من مواد هذا الكتاب، ومرافقتي في كثير من اللقاءات والندوات الأدبية، وتسجيل محتواها بدقة ومراجعتها معي..
فلها مني كل الشكر والتقدير

د. محمد فتحي عبد العال

مقدمة

ما دعاني لأن أفرد كتاباً خاصاً لإدارة الحوار مع قرائي، ما تعلمته بمجال الجودة من ضرورة التواصل (communication) وتقديم تفسيرات وتوصيات (feedback)كاملة وكافية ووافية نحو أي استفسار مهما كان..
وتعلمت أيضاً أن أحترم الاستفسارات مهما كانت بساطة أطروحاتها أو أصحابها، وتأكدت أنّ عبارة "آن للشافعي (في روايات أبو حنيفة) أن يمد رجله" لا حقيقة لها، ولا ينبغي أن تكون بين سائل ومسؤول..
بالتأكيد أنا لست موسوعياً، وبعض الأسئلة لا أخفيكم سراً أنّها تضعني في كثير من الأحيان في حيرة وفي مأزق البحث عن إجابة منطقية وشافية ومقنعة بعيداً عن التابوهات المحفوظة..
كثيراً ما وضعت نفسي مكان صاحب السؤال، وأخذت أعس بين أوراق الماضي ودروب خباياه بحثاً عمّا أقتنع به أولاً ليتسنى لي أن أقدمه لقرائي عن طيب خاطر..
ذات يوم قررت الالتحاق بمعهدٍ إسلاميّ بنظام الدراسة عن بعد، يزعم أن موطنه الأصلي أمريكا.. الصراحة لم يعنِني في الأمر سواء أكان صدقاً أو كذباً إلا أن أستمر على عهد قطعته على نفسي في الانتظام بالدراسات الإسلامية، إذ أحسست بأمان داخلي واطمئنان مع الدبلوم الأول الذي حصلت عليه من المعهد العالي للدراسات الإسلامية، واستشعرت أنّ التزود بالدين يبعث في النفس راحة لا تضاهى، فقررت أن أستمر رغم سفري للخارج.. سرعان ما ضقت ذرعاً بنظام المعهد الذي يشترط الحضور اليومي على برنامج زووم *(Zoom)* لمدة تتجاوز الساعتين، وهذا محال مع ظروف عملي فاقترحت عليهم أن تسجل المحاضرات وتترك مسألة الحضور لمن استطاع لذلك سبيلاً، وأوضحت أنّ بعض الدراسين يضطرون للكذب فيشعلون زر الزووم لمجرد إثبات الحضور، وينصرفون لأشغالهم في الحقيقة.. وإذا بمسؤول إحدى المواد وكأنني أشعلت زناد فكره المنغلق منذ ولادته، فبدلاً من أن يستمع ويناقش ويدرس الموضوع من جوانبه تجاهل كلامي بالكلية، واستحدث نظاماً جديداً وهو مناداة الطلبة أثناء بث المحاضرة، وتسجيل المنتبهين معه فعلياً، ووضع لائحة غياب كنت على رأسها... استغربت سلوكه وداخلتني الريبة وسألته عن مؤهلاته العلمية فكتب

رداً عليّ: "وهل يسأل الطالب عن مؤهلات أستاذه ومعلمه؟" فرددت عليه: بالطبع من حق الطالب أن يقف على مؤهلات الأستاذ وإن كانت متوافقة مع تخصصه.. فكتب في برود ترسمه الكلمات: وهل كان لدى البخاري أو الشافعي مؤهلات أكاديمية قبل تصديهم للحديث والفقه؟! ونالني الحجب والفصل من المعهد.. طبعاً عرفت أنّ هذا الأستاذ والذي من المفترض أنه موكل له الإشراف ومناقشة رسائل ماجستير ودكتوراه "أون لاين" هو مقرئ بأحد المساجد لا أكثر ولا أقل..

ما فائدة ما سردت؟! أريد أن أوضح لك عزيزي القارئ التعريف المثالي والجليّ لغياب مفهوم التواصل الفعال وانعدام ثقافة الحوار وتبادل الآراء داخل مجتمعاتنا...

ولن أكون مبالغاً أو لديّ استشعار زائد بالذات، أو حتى على بعض عتبات درج الغرور، إن قلت إنّي بهذا الكتاب الذي أضعه بين أيديكم به أكون أول كاتب مصري وعربي يتخذ هذه الخطوة، ويفرد هذه المساحة الكبيرة لقرائه؛ بحثاً عن قواسم مشتركة، وفهم متبادل من أجل واقع أفضل، وغد مشرق عمادهما تاريخ حقيقيّ أو قاب قوسين أو أدنى منه...

والله من وراء القصد

د. محمد فتحي عبد العال
كاتب وباحث وروائي مصري

الأسئلة والأجوبة

السؤال الأول

في مجموعة كتبك "صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر" و"نوستالجيا الواقع والأوهام" و"تاريخ حائر بين بان وآن" تحدثت عن مآسي الوضع الصحيّ في مصر من منظور "آرثر سيسيل ألبورت" في كتابه "ساعة عدل واحدة" لكني أرى أنّ الحوادث التي يرصدها الكتاب إن صحت بين عامي 1937م و1943م أي لفترة سبقت الحرب العالمية الثانية ولا تتخطاها.. فترة كهذه العالم على شفا حرب، ثمّ أضحى في أتونها والبنية الصحية على إثرها متهالكة في العالم كله وليس في مصر فقط.. وفي كتابك "منافح الأيك في مساجلات النخب" تحدثت عن تطبيق مصر لتوصيات "ألبورت" بعد إضراب التمريض عام 1948م، وهذا التوقيت يأتي بعد بدء جلاء الإنجليز عن مصر عام 1947م، والذي شمل القاهرة والإسكندرية.. إذاً نحن أمام بلد بدأت تتعافى بعد الاحتلال؛ ومن الطبيعي أنها تعيد صياغة المنظومة الصحية لديها وفق أولوياتها هي وليس تبعاً لرؤية الاحتلال الذي غادر إلى غير رجعة .

رؤيتك حقيقية، ولكنها تنطبق على الدول التي تسعى بالفعل وجدياً للتعافي، لكن وللأسف الشديد لم يكن التطوير الصحي وإصلاح هذه المنظومة المتهالكة والغارقة في الفساد على أولويات الدولة المصرية في نهايات الحقبة الملكية، والدليل هو "آرثر سيسيل ألبورت" ذاته، والذي عاد مرة أخرى في منصب مدير الوحدة الطبية بالقاهرة؛ ليكتشف أنّ الوضع ازداد سوءاً عما ترك، وأنا أعتبر "ألبورت" بحدسي هو الضمير الغائب في هذه المنظومة وفي التقرير الذي استعرضه يتحدث بلغة الأرقام والإحصائيات وهي اللغة الأكثر شفافية في طرح وعلاج أي مشكلة.. في الماضي وأنا مازلت بالكلية، كان أحد الأساتذة يقول لنا عن الإحصاء: إنّه العلم الذي يميز الصيادلة عن باقي التخصصات. فلما عملت بالجودة اكتشفت أنّ قوله لم يكن دقيقاً، فالإحصاء هو العلم الذي يصنع القرار في كل التخصصات..

نعود إلى "ألبورت" والذي كتب تقريراً إحصائياً خطيراً بأنّ 60% من مرضى أقسام الجراحة بقصر العيني -(التسمية الأدق وهي نسبة لصاحبه أمير الحج "شهاب الدين أحمد بن عبد الرحيم بن بدر الدين العيني" أصوله من عنتاب التركية. بعد فرار صاحبه في عهد السلطان قايتباي ووفاته، شهد قصره عدة استخدامات منها: قصر للضيافة، وسجن جبري، ومجلس للولاة، ومستشفى عسكري، ومقبرة مؤقتة لكليبر، وأخيراً مدرسة للطب في عهد محمد علي باشا) يموتون في شهر واحد ونشرته مجلة "المصور" في عددها 1327 في 17 مارس 1950م حيث استند في أرقامه للتقرير الإحصائي لوزارة الصحة عن المدة من أبريل إلى يونيو 1949م (أي بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وجلاء الإنجليز عن العاصمتين) حيث بلغ عدد من دخلوا قسم الجراحة في يونيو (1922) توفي منهم (1159) أي نسبة 60% وهو رقم مهول وكارثي لا يحدث حتى في المعارك الحربية الدامية وبالمقارنة بأبريل من نفس العام 1949م فقد بلغ عدد من دخلوا الجراحة (1754) توفي منهم (76) أي 4% وهو رقم مقبول.. لكن تحوله ل 60% في غضون شهرين يشي إلى أنّ هناك أحداثاً جسيمة قد وقعت (Sentinel Events) والحدث الجسيم هو أي حدث غير متوقع في بيئة تقديم الرعاية الصحية، قد يؤدي إلى ضررٍ خطيرٍ نفسيّ أو جسديّ، كفقد عضو من الجسم أو إبطال وظيفته أو نجم عنه وفاة المريض، ويكون ناتجاً عن خلل أو إهمال في تقديم الرعاية الصحية ولا علاقة له بالمرض الأساسيّ للمريض.

استعرض "ألبورت" في تقريره الحالات الأكثر وفاة في يونيو، حيث شهدت الولادات النصيب الأكبر من الوفيات (254) حالة وفاة من أصل (271) حالة دخول أي بنسبة 93%؟! تليها الجراحات العامة (990) حالة وفاة من أصل (1366) حالة دخول أي بنسبة 72% ولخبرة "ألبورت" بالساحة المصرية لفترة عمله السابقة بها، فهو يعرف أنّ شهر يونيو هو شهر امتحانات الدبلوم لطلبة الطب ولما كانت هيئة التدريس كلها تشترك في هذه الامتحانات (مكافأة الامتحانات طبعاً) فمن الطبيعي أن تخلو أقسام المستشفى من الأطباء المشرفين وهنا يُطرح سؤال لا يخلو من مرمى لذوي العقول: من يحل محل هؤلاء في إجراء العمليات الدقيقة؟!

وفي نهاية تقرير "ألبورت" فقد طالب بتشكيل لجنة حكومية تشتمل على اختصاصي في الطب الشرعيّ لبحث أسباب هذه الكارثة الفريدة من نوعها، وما

يقف وراءَها من أخطاء جسيمة في أثناء إجراء العمليات في مستشفى قصر العيني وما يجري في علاج المرضى بعد العمليات..

هل تعدّلَ شيءٌ؟!

يا عزيزي من متى ونحن نسأل هذه الأسئلة وفي بطن الشاعر أعظم إجابة، وحسبنا ما قاله الشاعر "عمرو بن معديكرب الزبيدي" الملقب "فارس العرب":

"لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نار نفخت بها أضاءت
ولكن أنت تنفخ في رماد"

وهكذا قال "كثير بن عبد الرحمن بن الأسود" أو "كثير عزة":

"يعز عليّ أن نغدو جميعا
وتصبح ثاويا رهنا بواد
فلو فوديت من حدث المنايا
وقيتك بالطريف وبالتلاد
لقد أسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي"

ففي "المصور" العدد 1406 في 21 سبتمبر 1951م وتقرير للمجلة عن مستشفى قصر العيني وأنه "عنوان الفوضى والقذارة والضجيج" فالمستشفى يحتاج إلى إصلاحات في بنيته وبه نقص في الأسرة، ومع ذلك يضطر المستشفى لقبول مرضى لا أسرّة لهم؛ حيث تُفرش لهم المراتب على الأرض لحين توفر أسرّة، علاوة على النقص في أعداد التمريض؛ حيث تقوم عشر ممرضات على خدمة سبعين مريضاً، ووسط نقص الخدم وانتشار سرقات الأغذية والأدوية وشكوى المرضى من رداءة الطبخ؛ لعدم وجود طباخ ماهر لتدني الرواتب الممنوحة لهم.. أضف لذلك سلوكيات المرضى الذين يلقون بالفضلات على الأرض، ويمسحون أيديهم في الفراش بدلاً من استخدام الفوط التي تصرف لهم. من السلوكيات الأخرى إخفاء الأطعمة بين المراتب، لذا لا عجب أن يقطر فراش المستشفى زيتاً وسمناً، والبقع تتوسطه.. علاوة على كثرة الزوار للمريض الواحد من العائلة والأهل والأقارب والأصدقاء والأولاد بما تضيق به سعة المستشفى، وينشر الضجيج ويقلق راحة باقي المرضى...

تدني المنظومة الصحية ليس وليد اليوم كما قلنا مراراً وتكراراً، والذكرى تنفع العاقلين وبمناسبة الأحداث الجسيمة فقد دار بمخيلتي وأنا أعد العدة للإجابة على هذا السؤال ما حدثني به يوماً صديق يعمل بالجودة في أحد المستشفيات الخاصة، وأنّ الذباب كان يرتع داخل غرف العمليات دون رادع والأطباء متعايشون مع الظاهرة في سكون تام، وإيماناً بأنّ الأعمار مقسومة وكله قضاء وقدر! وهو الفكر ذاته الذي كان يحكم أصحاب المستشفى الذين لم يحركوا ساكناً للقضاء على هذه الكارثة التي تطيح بأبجديات مكافحة العدوى وتستأصل سياساته من جذورها ومع ذلك بذلوا أموالاً كثيرة للحصول على اعتماد غير مستحق، والأدهى أن قام المستشفى بإحلال فريقه الطبي بفريق مدرب حتى يتم الحصول على الاعتماد بعدها، عادت ريما لعادتها القديمة.. ومازلتُ أتذكر قريبة لي زرتها بمستشفى جامعي، والقطط الضخمة تجول في أروقة المستشفى كمقيم دائم يعرف طريقه ولا يعيقه عن مهمته أحد.. في إحدى إجازاتي لمصر قادتني قدماي لأحد مستشفيات مدينتي القديمة، ودخلت لأستمع لمحاضرة زميل قديم عن إدارة المخاطر، وبينما أنا جالس أنتظر بدء المحاضرة، وجدت قطة ترقد تحتي، فغادرت القاعة حتى تخرج فإذا بي أجد قطة سوداء كبيرة تخرج من العناية المركزة في طريقها للتنقل بين غرف المرضى..

إنها كوميديا سوداء أرددها مراراً ولا أملُّ..

ما فائدة التكرار إن لم يكن هناك سبيل للتغيير؟!

مما يروى أنّ المصلح العربي "عبد الحميد بن باديس" رائد النهضة الإسلامية في الجزائر، ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد زار إحدى القرى وكان قد تفشى فيها الجهل والأمية وعجز وعاظوها ومثقفوها عن القيام بدورهم، وقد سكن اليأس قلوبهم وسرى في أوصالهم فالناس في رقاد كالموتى لا تحركهم دعوة ولا يجدي معهم وعظ ولا يستنهض همهم إرشاد ولا حياة لمن تنادي.. هنا قال الإمام "ابن باديس" مصححاً: "لا تقل (لا حياة لمن تنادي)، ولكن قل: (لا منادي ينادي)، فأكثروا إذاً من المناداة إن أردتم أن يستجاب لكم، ولا تخافوا من الراقدين ولا سيما إذا طال رقادهم كما هي الحالة عندنا.."

السؤال الثاني

في كتاب "تاريخ حائر بين بان وآن" نقلت عن "آرثر سيسيل ألبورت" مشكلة تفشي سرقات الأدوية والمستلزمات وهي في وجهة نظري كمديرة مخزن حكومي من قبيل المبالغات، فالجرد على قدم وساق لا ينقطع، والتفتيشات ودفاتر مسؤولي الشطب للعهد ودفاتر مسؤولي الصرف والمطابقات الدورية كل هذا وغيره من أساليب تبدو قديمة وبدائية لكنها قوية ورادعة.

الحل يا صديقتي العزيزة أن أحيلك إلى واحدة من أغرب وأطرف وأعجب ما صادفت في أرشيف الصحافة المصرية في الحقبة الملكية، وحكاية "أم محمد" أو "نفيسة عبد الرازق شريف" والتي حملت إلى منزلها في حي العباسية ثلاث سيارات لورى ضخمة بها (1116) قطعة من الملابس من عهدة وزارة الصحة (262 جلباب -200 غطاء سرير-89 كيس مخدة- 180 كيس مرتبة -250 قميص-100 بطانية صوف -معاطف وسراويل) جميعها جديدة وعليها خاتم وزارة الصحة.. بناء على إخبارية من أحد السكان إلى الصاغ "أحمد سليمان" تم القبض على السيدة والتي اتضح أنها كانت تتاجر في مخلفات الجيش في السابق، وتبيّن من التحقيقات أنّ لها سكرتيرة وادعت حتى تتنصل من التهمة أنّ تاجر أقمشة بالغورية يدعى "أحمد عبد النبي" قد أحضر لها هذه البضائع على سبيل الأمانة لحفظها لديها مدة يومين.
تم القبض على التاجر والذي ادعى أن صلته انقطعت بالمتهمة منذ عملهما في مخلفات الجيش لخلافات بينهما وأنّ اتهامها له مبعثه بحثها عن شريك في القضية.. المثير هو موقف وزارة الصحة التي لم تدرِ من أي عهدة سلبت هذه المسروقات وأين بالضبط؟! واعدة بإجراء جرد لتحديد المسؤولية.. وإلى الآن المسؤولية في سبات عميق ولم تستيقظ.

السؤال الثالث :

تحدثت في كتاب "رواق القصص الرمضاني" عن مقدار البذخ الشديد في الأفراح الرياضية.. ورياض باشا في النهاية رجل ثري له مطلق الحرية في إنفاق ثروته بالشكل الذي يريده بعيداً عن النظرة الطبقية المعتادة الكارهة للرأسماليين.. الحال نفسه لمحته في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" فيما يخص الإنفاق الكبير لإدريس راغب على المحافل الماسونية وهو حر هو الآخر فيما يملك وقد ورث عن أبيه مالاً كثيراً..

اسمحلي أن أجيب عن هذا السؤال بسؤال آراه مشروعاً، وهو من أين لرياض باشا وإسماعيل باشا (والد إدريس بيك) كل هذا الثراء الفاحش والسريع مع أن بدايتهما كانت شديدة التواضع؟! فكلاهما بدأ كاتباً، ثم أصبحا في قمة الثراء والسلطة وكلاهما ارتقى منصب الوزارة في فترة الثورة العرابية وما تلاها..
نبدأ بمصطفى رياض باشا (راجع تاريخ حائر بين بان وآن وقصته مع الهلباوي) قيل: إنّه يهودي إزميري من "سميرنا (مدينة يونانية قديمة أطلالها ضمن مدينة إزمير التركية)" من أسرة "الوزان" المرابين ووازني الذهب واسمه الحقيقي "يعقوب" وقيل تركي مسلم ونجل ناظر الضربخانة المصرية (سك العملة) وذلك بحسب مجلة "المقتطف" في أغسطس 1911 م وأميل إلى الأصل الثاني لزواجه من ابنة "حسين طبوزاده"، وهو تركي من البلقان وهي من الأسر العريقة التي ارتبطت بعهد محمد علي باشا الكبير ومن الصعوبة أن تصاهر أسر يهودية الأصل.. تدرج في مسار غريب من المناصب غير المتجانسة أثناء رحلته المهنية، فبدأ حياته بوظيفة ناسخ مبيض في مجلس العموم 1848م براتب 145 قرش، سرعان ما زادت إلى 193 قرش و13 بارة في غضون ستة أشهر، مع تكليفه بقيد الخلاصات، ثم كاتب عربي بديوان الوثائق، ثم ملازم في سلك عساكر الموسيقى، وتدرج في الرتب مع استمراره كعازف حتى رتبة البكباشي (ولا تفهم العلاقة بين الكتابة والموسيقى!) وفي عام 1853م عيّن مديراً للجيزة، ثم أطفيح، ثم الفيوم، ثم قنا، ثم نائباً لناظر السكك الحديدية. وتضخمت ثروته بفضل الإنعامات عليه، حيث بلغت ثروته الزراعية 850 فدان خلال عشر سنوات في الفترة من 1853م إلى 1864م..

شغل منصب رئيس الوزراء ثلاث مرات: الأولى (21 سبتمبر 1879م - 10 سبتمبر 1881م)، الثانية (9 يونيو 1888 م- 12 مايو 1891م)، الثالثة (19 يناير "عيد ميلادي "1893 م- 15 أبريل 1894م). ويحسب له إلغاء السخرة وإبطال استعمال الكرباج في ضرب الفلاحين، بما أسهم في تحسين صورة حقوق الإنسان في مصر أمام دوائر الحكم والسياسة في أوروبا، كما سعى في إصلاح المدارس والكتاتيب من أجل نشر التعليم الشعبي مستعيناً بخبير التعليم السويسري "دوربك."

لكن كم كان يبلغ راتب رياض باشا كموظف حكومي مصري؟!

بالاستئناس بإحدى الأوراق التاريخية الصادرة من نظارة المالية -إدارة عموم الحسابات المصرية -إدارة الخزينة العمومية في زمن رئاسته للوزراء في المرة الثانية، وكان يجمع معه نظارتي الداخلية والمالية، فقد بلغ راتبه 2700 جنيه مصري شهري عن قيمة مربوط وظيفة نظارة الداخلية على حسب الوارد بميزانية 1888م محسوباً في ميزانية نظارة الداخلية والباقي وقدره ألف جنيه (على واقع "ماية أي مائة" خمسة وعشرين جنيهاً مصرياً باعتبار سنوي ألف جنيه مصري) المربوط بالروزنامجة..

أما "إسماعيل باشا راغب" والد "إدريس بيك" فبحسب أوراق تاريخية نورد محتواها على سبيل الاستئناس، فقد كان أول عمل له في مصر في أواخر 1249 هجرية وأول محرم 1250 هجرية (بين عامي 1833 م و 1835 م) بوظيفة مبيض (أوراق) ومساعد الترجمة بماهية 175 قرش بقلم الجرنال الملحق بنظارة الدرسخانة والمكتب التابع لمجلس الملكية، ثم انتقل من قلم الجرنال إلى معية جنتمكان (كلمة تركية تعني ساكن الجنان) أفندينا محمد علي باشا والذي منحه 500 فدان، كانت نواة ثروته، وعيّنه ملازم أول، ثم رُقّي إلى بكباشي (مقدم) عام 1840م، ثم قائمقام (عقيد) عام 1844م، ثم أميرالاي (عميد) عام 1846م..

ما تكشفه الأوراق التاريخية (على سبيل الاستئناس) إن صحت عن الذمة المالية لرجل شغل مناصب مالية هامة قبل وبعد الحادثة..

الورقة التاريخية التي نحن بصددها عبارة عن خطاب مرفوع من "إسماعيل راغب" وبختمه إلى رئيس ديوان الخديوي أنه فصل (رفت) من وظيفته في ديوان المالية كوكيل للمالية بتهمة الاختلاس وذلك بقرار من المجلس الخصوصي والسبب في الفصل هو جواب محرر منه لمشايخ الناحية للحضور إلى المحروسة للتأكد من وجود "أبعادية" لم يكن يعلمها من قبل وأخذها في حالة وجودها لخاله حضرة عبد القادر بيك "خالنا" من باب أولى من أن يأخذها الغير وهو لا يجد أي غضاضة في استعمال نفوذه والتخصيص لأولي قربته، ويعلنها بشكل صحيح في تعليله لاختيار خاله وذلك لقرابته ومعه أمر بأخذ "أبعادية" فضلاً عن كونه جهادياً في عدة حروب ومشهود له!

تأمل معي هذه القصة، ثم انظر لثروة الرجل التي خلّفها لابنه الذي ولد وفي فمه ملعقة ذهب، وكلّ ما كان عليه هو إضاعتها.. وتفاصيل ثروته بحسب موقع "ذاكرة مصر المعاصرة التابع لمكتبة **الإسكندرية**: "ثلاثة عشر ألف فدان في مناطق السكاكين وغمرة والظاهر في القاهرة، وراغب باشا بالإسكندرية، وقصر البرامونى وسان ستيفانو، كما ترك 200 ألف جنيه ذهب مودعة في بنك الكريدي ليون وثلاثين أخرى مودعة في بنك منشة وشركائه". أمتخيل معي حجم هذا الثراء الخيالي في بلاد شعبها جلّه عراة وجوعى وحفاة ولا يوجد بها قانون يحاسب المسؤول من أين لك هذا؟!

تأمل معي بعد أن استوعبت حقيقة الذمة المالية للرجل والمدان فيها- لو صحت الورقة- السيرة المهنية الجبارة له: ناظر المالية - ناظر الجهادية - مفتش الأقاليم البحرية - ناظر الداخلية- رئيس الديوان الخديوي - رئاسة المعاونين - رئيس المجلس الخصوصي- رئيس مجلس النواب. وأخيراً شكّل وزارته في الفترة من 17 يونيو 1882م وحتى 21 أغسطس 1882م حيث أبدى في البداية موقفاً مسانداً للثورة العرابية وعزل الخديوي توفيق، ثم عاد عن موقفه وساند الخديوي توفيق..

الذي سيصيبك بالدهشة التامة أنّ هذا الرجل بكل هذا الحصاد الغزير والمنهمر من المناصب التي لا تتوقف كان مصاباً بالشلل النصفي.. المرض ليس عيباً ولا ينبغي أن يعيق عن ارتياد سبل الطموح والسعي، وهي نقطة تحسب للرجل.. لكن ما نود أن نتوقف عنده هو نقاط التميز لرجلين جلبا من الخارج بأموال مصرية وليس لديهما أية مزايا أو خبرات، وكل ما اكتسباه منها جاء بدعم من حكام أسرة محمد علي باشا، ولولا ذلك ما صعدا ولو بقيا في بلادهما عشرات

السنين ما تحركا قدر أنملة.. أما والأمر كذلك، لمَ لمْ توجه الفرصة لأبناء البلد منذ البداية؟! وكلها مناصب كتابية لا تتطلب سوى مشروع لتعليم أبناء البلد القراءة والكتابة حتى ينعموا بخيرات بلادهم بدلاً من أجانب مصطنعين يحصدون الثروات الكبيرة وينفقونها بتبذير لا يخشون معه نفادها، فقربهم المستمر من أولي الأمر يبقيهم دائماً في دائرة النفوذ والسلطة والجاه والمال ولا عزاء للمصريين الفقراء في كل العصور.

السؤال الرابع

سمعت في إحدى الحلقات على "اليوتيوب" أن "بهلول" الموجود في جامع "تمراز الأحمدي" هو "بهلول" شقيق هارون الرشيد وهذا يعارض ما جاء في كتابك "بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان" من أنه شخصية مجهولة وشهرة "تمراز" طغت عليه، فهلّا صوبت ما لديك في طبعات لاحقة من الكتاب؟!

بالتأكيد وقطعياً هذا ليس صحيحاً.. ذلك أنّ "أبو وهب بهلول بن عمرو الصيرفي" قد ولد بالكوفة بالعراق وتوفي عام 197 هجرية (بين عامي 812 م و813 م) ودفن في مقبرة "الشُونيزي أو الشونيزية أو الحبة السوداء أو مقبرة الكرخ القديمة" وقبره معروف هناك. وقيل إنّ اسمه الحقيقي ليس "بهلول" وهو صفة له تعني "المرح الضحاك" و"المجنون" أيضاً، وعلى هذا تنوعت الروايات حوله من أنه من أقارب الخليفة العباسي "هارون الرشيد" وابن عمه، ولكن فقد عقله وقيل من المهرجين للرشيد، وقيل من الواعظين، وقيل أيضاً ادعى الجنون هروباً من تقلد القضاء والحكم بهوى الخليفة، وله في التاريخ عظات مأثورة: حيث ذكر "أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري" في كتابه "عقلاء المجانين": "خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولاً المجنون على قصبة وخلفه الصبيان وهو يعدو فقال من هذا، قالوا بهلول المجنون، قال كنت أشتهي أن أراه فأدعوه من غير ترويع، فقالوا له أجب أمير المؤمنين، فعدا على قصبته، فقال الرشيد: السلام عليك يا بهلول، فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: كنت إليك بالأشواق، قال: لكني لم أشتق إليك، قال: عظني يا بهلول، قال: وبمَ أعظك؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم (يذكره بمصير الخلفاء من قبله وقد آلوا جميعاً إلى مصير واحد هو الموت، واجتمعت أجداثهم بجوار قصورهم الشاهقة التي شيدوها في حياتهم وقد طمعوا أن تطول بهم الأيام، فإذا هي تطوى كطي السجل للكتب في لمح بالبصر)، قال: زدني فقد أحسنت، قال: يا أمير المؤمنين من رزقه الله مالاً وجمالاً فعف في جماله وواسى في ماله، كتب في ديوان الأبرار فظن الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال: لا يا أمير المؤمنين لا

يقضى الدين بدين أردد الحق على أهله واقضِ دين نفسك من نفسك، قال: فإنا قد أمرنا أن يجري عليك، فقال: يا أمير المؤمنين أترى الله يعطيك وينساني؟ ثم ولى هارباً".

السؤال الخامس

في كتابك "بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان" عند الحديث عن "أبي الخير الكليباتي" وفي كتاب "نزهة الألباء في مطارحات القراء" عند الحديث عن الشيخ "أحمد الحناوي" أشعرتنا أن المرأة دوماً مرتبطة بسير الأولياء ومتعلقة بنفحاتهم؟!

أعتقد أن مقام سيدي "محمد العجمي" بالإسكندرية قد يمثل استثناءً لاستنتاجك.. فالروايات حول بركاته تدعي أنه يحمي قوارب الراكبين شريطة أن يكونوا ذكوراً، لأن سيدي العجمي يبغض النساء والسبب الذي تسوقه الروايات أنّ أمه توفيت في طفولته فعذبته زوجة أبيه فكره النساء جميعاً من وقتها.. وفي سبيل تقديم هذه الحماية الذكورية، فقد اتفق سيدي "محمد العجمي" ـ والذي عمل في شبابه صياد سمك وكان محبوباً من الصيادين لدرجة أن كانوا يهتفون باسمه قبل أن يلقوا شباكهم في البحر فيهرع السمك بأنواعه القيمة إلى الشباك ـ مع "جن" البحار على عدم إيذاء بني آدم خاصة الرجال حيث كانت الجنيات قبل هذا الوفاق الودي تخرج من الماء إلى الشاطئ وتوقع الضرر والإيذاء بالناس، وذلك بحسب ما جاء عنه في العدد 1316 من مجلة "المصور "في 30 ديسمبر 1949م.

ومن طريف كرامات الشيخ أنّ الإنجليز وسعياً لإقامة موقع حصين في مكان الضريح الأصلي للدفاع الساحلي ومكافحة الطائرات وكان وجود الضريح هو العقبة أمام هذه المساعي، فقد قررت القيادة الإنجليزية بناء ضريح لسيدي العجمي في مكان آخر من الجزيرة على نفقتها، وليس نفقة الحكومة المصرية، وهذا من أوجه الإعجاز بلا شك، وتم نقل الولي بمعرفتهم إلى مقامه الجديد والناس تتحادث بأن هذا من كرامات الشيخ إذ كان الضريح قد تقادم به العهد فسخر له الله الإنجليز ليشيدوا له ضريحاً جديداً وعلى حسابهم!... وتصور حينما تختل قاعدة "الحساب إنجليزي" أي كل عن نفسه وهي من موروث الاستعمار البريطاني في مصر.

يخيل لي أننا البلد الأغنى بمقامات ومساجد أولياء الله الصالحين، فهي في كل مكان تقريباً حتى السجن.. تصوّر أنّ هذه ليست مبالغة، ففي قلب سجن الاستئناف بالقاهرة خلف مديرية الأمن في منطقة باب الخلق يوجد ضريح السيدة صفية وهو الضريح الذي لا يقصده سوى السجناء بسبب مكانه ويصلون في المسجد بجواره حتى أطلق عليها "شفيعة المسجونين" لما يتناقله المساجين من كرامات عنها ومنها أن مسجون بريء كان على شفا الإعدام هتف باسمها، فإذا بالطعن يظهر براءته والعكس حدث حينما سخر سجين شيوعي من كراماتها المزعومة فغلظت عقوبته فندم على ما فعل..

لكن ما الذي أتى بالضريح إلى هذا المكان تظهر بعض الأوراق التاريخية "حجة" باسم "عصمتلوا" توحيدة هانم ابنة الخديوي إسماعيل (سيدة الهوانم والخواتين (جمع "خاتون" وهي كلمة تركية تعني السيدة ذات الشأن أو السلطانة وممن تسموا به من العرب "زبيدة خاتون" زوجة الخليفة العباسي "هارون الرشيد")، صاحبة العفة والأمانة والدين، المحجوبة بحجاب العز والحياء من الأبصار المحفوفة بالعناية والأنوار، بلقيسة الزمان وحيدة العصر والآوان، ذات الهيبة الشاملة والشمايل الكاملة والجمال الباهر السيدة المصون والجوهرة المكنونة بحسب أوصاف الورقة التاريخية) زوجة منصور باشا يكن الشهير بيحيي نجل أحمد باشا يكن ناظر الجهادية (سعادة فخر الوزراء وعزها وشمس شموس البدور وزهرها، الجناب العالي والكوكب المنير المتلألئ، حائز رتب المفاخر والمعالي، صاحب القدر والمجد والمعالي، أمير الأمراء وكنز الفقراء، عين الإنسان وبهجة الزمان، أظهره الله في الوجود على كيد كل حسود (وهذا بحسب أوصافه في الورقة التاريخية)" أن الضريح كان بقصر مملوك لها يعرف بالسراي الكبرى المعروفة بسراي عالي باب سعادة والخلق "المستجد الانشاء والعمارة". وقيل إنّ منصور باشا هم بهدم المقام وتراجع خشية أن تصيبه اللعنات وقد شغل السجن في مرحلة لاحقة حديقة القصر.

أما عن صاحبة المقام فهي بحسب ما يتناقله الناس دون تيقن هي السيدة "صفية بنت إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم المتوفية ليلة الخميس تاسع المحرم سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة من الهجرة النبوية". وأنها هاجرت من "مكة" إلى "مصر" بصحبة شقيقتها "الست سعادة"

واشتهرا بالورع والتقوى.. ولمحبة المصريين لأهل البيت وتكريمهم، فقد أُقيمَ للأختين ضريحان بالقرب من بعضهما البعض..

التعلق ببركات أهل الكرامات لا يتعلق بالمسلمين وحدهم في مصر، بل يشاركهم في ذلك اليهود (فترة إقامتهم بمصر) والمسيحيون، ففي شبرا مثلاً بالقرب من جامع "الخازندارة (شيدته المرحومة خديجة هانم كريمة المرحوم محمد راغب آغا معتوق الخديوي عباس حلمي الأول الشــهير بالخازندار ليكون المقر الأول لكلية أصول الدين التابعة للأزهر عام 1912 م وتوفيت عام 1918م دون أن تشهد المنشآت الخيرية التي أرادت أن تلحقها به وجرى افتتاحه في 11 فبراير 1927 م)" توجد كنيسة أو دير "القديسة تريزة" أو كنيسة" سانت تريزا" الأثرية (بجوار قسم الساحل الآن) وهي راهبة فرنسية تدعى "ماري فرانسوا تيريزا" وكانت تعيش في مدينة "ليزيو" بفرنسا توفيت عام 1905م بمرض "السل" عن عمر يناهز أربعة وعشرين عاماً، ومما يروى عنها أنها كانت كثيرة الصلاة والتعبد وكانت تزعم أنّ المسيح يظهر لها ويخبرها باستعداده لمساعدتها في كل ما ينقذ الإنسانية من شقائها ومن أقوالها: "سوف أترك مكاني في السماء وأعمل الخير على الأرض" وكان لها أربع شقيقات جميعهن راهبات، ومن كراماتها أنها حينما توفيت وكانت إحدى شقيقاتها تعاني من ملازمة مرض الصداع بشكل مستمر، ولم تفلح معه جهود الأطباء أو حيل المجربين، فما إن قبلت جسدها المسجى قبلة الوداع حتى دبت الصحة في أوصالها وشفيت في التوّ من الصداع، وصدقت ما لم تكن تصدقه عن كرامات شقيقتها.. وقد حملت سيرتها عنوان "قصة نفس"...

ذيوع أمر كرامات القديسة "تريزة" وتعلق الرهبان الفرنسيين التابعين لكنيستها بها دفعهم إلى استئجار بيتٍ صغيرٍ في مصر عام 1926م ليكون كنيسة لها، لكن ومع تزايد عدد الزائرين بشكل كبير وعجز المكان الصغير عن استيعابهم جمعوا عشرة آلاف جنيه وبنوا داراً كبيرة لتكون مستقر كنيسة "تريزة" في مصر، والتي وضع حجر الأساس لها عام 1931 م، وجرى افتتاحها في أكتوبر عام 1932م تزامناً مع ذكراها..

كانت الكنيسة مقصداً لنجوم الفن والسياسة عبر العهود المختلفة ومنهم "عبد الحليم حافظ" وقد اشتد مرضه و"فريد الأطرش" و"محمد عبد الوهاب" وابنته "أش أش" وغيرهم على لوحات شكر رخامية تزين الجدران.. لكنْ للتاريخ سحر لذلك فأجمل ما قرأت من أقوال مريديها ما قاله فلاح جاء لزيارة كنيستها:

"ياست يا قديسة.. قالوا لي عنك إنك مبروكة وإنك صاحبة كرامات لذلك جيت أصلي أمامك علشان ابني الصغير يطيب من مرضه" فلما جاء اليوم التالي تحقق شفاء الابن، وذلك بحسب ما جاء في مجلة "الدنيا المصورة" العدد 215 في 31 أغسطس 1932م .. ومما يروى أيضاً أن الملكة فريدة وربما كان هذا مع توقيت طلاقها من الملك فاروق قد أرسلت لوحة رخامية وكتبت عليها "اذكر يا رب عبدتك فريدة.."

طبعاً كل هذه الحكايات نقصد بها الطرافة لكن تبقى حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان لحظة وهي أن الله عز وجل هو مدبر هذا الكون والشفاء ودفع الإيذاء وإزالة الكروب كل من عند الله وبالدعاء والتضرع إليه ولا يجوز التوسل بأحد إلا الله وزيارة هذه الأماكن من قبيل المؤانسة بأولياء الله والصالحين وتدبر قصصهم واستشعار عظم الله تبارك وتعالى في الشد من أزرهم في أوقات المحن وقراءة الفاتحة عليهم وعلى الموتى أمر لا شيء فيه، فقراءة الفاتحة يصل ثوابها إلى الميت والتوجه بالدعاء في أي من الشؤون لا يكون إلا لله تبارك وتعالى.

السؤال السادس

في كتابك "على مقهى الأربعين" تحدثت عن بعض المآسي في المصالح الحكومية والخاصة التي لا يراعى فيها خصوصية بعض الأمراض المصاب بها بعض العاملين داخل هذه المصالح مثل: السكري والأمراض العصبية ووجوب تقديم الرحمة والإنسانية على لوائح العمل الصماء.. فهل هذه الحوادث قد ظهرت حديثاً مع تعقد أساليب العمل ومتطلباته أم لها رصيد من الماضي؟

سأضع بين يديك قضية من عهد الخديوي إسماعيل أي عهد النهضة المدنية المفترض أنها كانت على طريق البزوغ وحادثة من سجلات ضبطية مصر تعود إلى عام 1865م والجارية السوداء "خيره" المصابة بالريح المعترية (نوبات صرعية أو مس من الجن) وهي مملوكة لشخص من سكان "درب القمح" بالسيدة زينب يدعى "صالح إبراهيم المهندس".. وفي إحدى الأيام تلقى معاون "تمن (قسم) درب الجماميز" إخبارية من "عفيفي" الحانوتي بالخان المذكور أنّ الفتاة قد توفيت وأنّ سيدها يزعم أنّ الفتاة وقعت على السلالم بسبب "الريح المعترية" وبعد مضي نصف ساعة توفيت وقد أقرت شهادة الشهود من الجيران الحاج "سيد فخره الصباغ" والحاج "محمد جبر النجار" إصابة الفتاة بالريح المعترية..

باستجواب سيدها "صالح إبراهيم المهندس" عن كواليس الواقعة وتفاصيل ما حدث اتضح أنه ترك الجارية المسكينة بالمنزل مع زوجته (نظرها ضعيف جداً) وحماته (فاقدة الإبصار) حسب العادة وتوجه لعمله وبعد الظهر حضر له ولده (أحمد) ليخبره بالواقعة وأنّ الجارية سقطت من على السلالم (سبع قلبات وارتفاعه عشرة أمتار) وهي تكنسها وقد اعتراها الريح فسقطت وفارقت الحياة.. قررت الضبطية أنّ الوفاة كانت قضاء وقدراً وعليه لا توجد دعوى..

هل صحيح أن القضاء والقدر هما السبب في موت الفتاة؟! أم غياب المنظومة الاجتماعية التي تكفل الحماية لهذه الفئات الفقيرة المغلوبة على أمرها وتضمن لها ظروف العمل التي تحيد بها عن المخاطر حفظاً لها ولأرواحها..

إن اليوم الذي تكفل فيه حياة البسطاء وتضمن لهم فيه معيشة كريمة لخليق أن يجعل لهذه البلاد مكانة حقيقية وتاريخ يستحق أن يقرأ..
وحتى لا يكون حديثنا إنشائياً وفي جوهر المناقشة متى بدأت حقوق العمال تطفو على السطح ولماذا نحتفل أساساً بعيد العمال؟!
عيد العمال هو العيد الذي يجمع العمال من العالم أجمع اعترافاً بحقوقهم وكامل فضلهم ودورهم البناء في النهوض بمجتمعاتهم.. ويحمل العيد في طياته ذكرى بدأت إرهاصاتها في أستراليا عام ١٨٥٦م حينما نجح عمال البناء في ملبورن وسيدني في انتزاع حقٍ تاريخيّ لهم في خفض عدد ساعات العمل لثماني ساعات يومياً، وبذلك صارت أستراليا الدولة الأولى التي تحتفل بهذا العيد في ٢١ أبريل عام ١٨٥٦م، وبعد ثلاثين عاماً من هذا التاريخ انطلقت الشرارة مجدداً، ولكن هذه المرة من الولايات المتحدة الأمريكية حيث دعت النقابات العمالية الأمريكية لإضراب في الأول من مايو عام ١٨٨٦م في ولايتي شيكاغو وكاليفورنيا بالتزامن مع إضراب آخر شهدته مدينة تورنتو الكندية من أجل تحديد عدد ساعات العمل بثماني ساعات فقط، ومن وقتها وصار الاحتفال بعيد العمال عيداً عالمياً في الأول من مايو من كل عام..
أين مصر لتأخذ خطوة كهذا وعهد سعيد باشا وإسماعيل باشا مفتون بمظاهر الحضارة الأوروبية ساعياً لتقليدها بشتى الطرق ولو بالديون.. فهل حق كهذا كان سيثقل كاهل الخزينة المصرية مثلما أثقلتها ديون المظاهر؟!
لدينا مع عقدة الخواجة ألوان وأشكال فنحن مع الغرب والغربيين في سخاء وكرم ومع أبناء جلدتنا وملتنا في ضيق وضنك وقمع وقحط.. ينشد حكام بلادنا الرفعة معهم وفي ركابهم.. يقتبسون منهم الأبهة والفخامة والمظاهرة الخادعة ولا يلتفتون لحقوق البشر التي تطورت لديهم ليحذو حذوهم ولو قبس بسيط ساطع.. الغريب أنّ كثيراً من هؤلاء الحكام الشرقيين لا يبالون بحكم التاريخ في أوطانهم بينما محط أنظارهم كلمة إشادة غربية هنا أو تقرير تقريظ هناك.. ومع دوران التاريخ يجتمع الحكمان الشرقي والغربي معاً من حول رقبة هذا الحاكم فلا يمكن بأي حال أن يحترم الغرب أو أي أمة كانت حاكماً شرقياً يقمع شعبه وتحركه شهواته وإن اضطرته المصلحة أن يعطى الحاكم في زمنه ما يرضي غروره من ثناء.. تظل النفوس تنبض بالحقيقة الجلية في خفاء حتى حين وخلاصتها واضحة لأولي الألباب أنّ احترام الحاكم ورفعته من احترامه لشعبه وتقديره له واحترام إرادته، ولكن كعادتنا نندب حظنا العاثر في هذه البقاع

المظلمة ونقول في حسرة وهل يتعظ أحد من عبر التاريخ؟! وخير مثال على هذا النوع من الحكام الخديوي إسماعيل.. رجل حلم ببلاده تسير في ركاب النهضة والمدنية حلماً مشروعاً.. لكنه سلك في سبيل تحقيق ذلك مسلك القروض فأغرق ميزانية البلاد في ديون لا حصر لها، ومع ذلك فهو يبذل المال في بذخ شديد ليعلي من صورته أمام الرأي العام العالمي وهو في ذلك لا يفرق بين ميزانية الدولة وميزانيته الشخصية..

في عام 1277 هـ (1860 م) وكان مازال أميراً (الورقة التاريخية على سبيل الاستئناس) نجده يُمنح منزل له كائن على ترعة المحمودية للخواجة انستاسي أو انسطاسي خوتباري (من التجار اليونانين بالأسكندرية وقد تسمى شارع الجزائر الحالي بالإسكندرية باسمه في السابق ومازالت مقبرته التي تحمل اسمه ضمن المقابر اليونانية بالإسكندرية) وذلك على سبيل الهبة مسامحاً إياه في الثمن وقدره ماية (مائة) ألف غرش صاغ، وقد تحررت حجة الهبة باسم الخواجة على أن تكون مصاريفها عليه. والواضح أنّ الورقة التاريخية لو صحت قد كتبت وإسماعيل مازال أميراً، ولكن العقد نُفّذ وقد صار حاكماً لمصر بعدها بثلاث سنوات حيث تشتمل إحدى التعقيبات على مسمى "أفندينا ولي النعم."

وحينما صار حاكماً لمصر وفي عز الأزمة المالية التي كان المتسبب فيها.. راح يزيد من مخصصاته ومخصصات أسرته وكأن الشعب المسكين وحده هو من عليه أن يسدد فوائد خطايا حكامه ويشد الحزام حول خصره من الجوع ويصبر على الفاقة بينما أيدي حكامه لا يمكنها الصبر ولا تستطيع مشاركته الحاجة والعوز الذي يعانيه..

ونستعرض هنا على سبيل الاستئناس ورقة تاريخية (حوالة نمرة 136 في 13 يناير 1880م وعليها خاتم ناظر المالية وكيل باليد محمد مظلوم) تحمل تفاصيل مخصصات الحضرة الخديوية وحضرات الأعضاء الفخيمة متأخر الماهيات عام 1879م وتبلغ 1678400 مليون وستمائة وثمانية وسبعين ألف وأربعمائة غرش (قرش) بالايصال وحسب الواضح بالكشف:

374100 "الحضرة الخديوية يصرف إلى سعادة ناظر الدائرة الخديوية (قارن الرقم بمتأخرات عام 1876 م وكانت مخصصات الخديوي فيها 71450.52 ومتأخرات 1877م وبلغت المخصصات فيها 245985.03 لتدرك مدى الزيادات المضطردة والأدهى أن المتأخرات صرفت من قرض روتشيلد)- 145000 دولتلو البرنس حسين باشا كامل -145000دولتلو البرنس حسن باشا

-193300 دولتلو تفيدة خانم أفندي -120800 البرنس إبراهيم باشا -48300 البرنس فؤاد بك -80500 برنسيس جميلة خانم أفندي (دفع الخديوي في 10مارس 1873م عشرة آلاف ليرة إسترليني من الخزانة المصرية لسداد ديونها) -201300 دولتلو بيوك والدة باشا (دلا زاد هانم)-40200 سعادته أمينة خانم-40200 سعادته نعمت خانم وغيرهم والقائمة طويلة".

كل هذا ينفق لمجموعة من العاطلين عن العمل لمجرد أنهم يحملون دماء ملكية مقدسة لا ينقص من أموالهم شيئاً.. ينفقونها في السفريات والرحلات والمصايف والحفلات بينما تنزع ملكيات الناس وتفرض عليهم الضرائب الباهظة والغرامات لسداد الديون وتنشئ المدارس لتعليم أبنائهم بالمساهمات والتبرعات!

السؤال السابع

تحدثت في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" عن تطلعات العمال من واقع أرشيف الصحافة المصرية.. هل السينما كانت على القدر المطلوب من المسؤولية في رصد مشكلات العمال في مصر ولنأخذ فيلم "الأيدي الناعمة "مثالاً؟!

مصر لم تكن غائبة عن هذه الأجواء الاحتفالية الخاصة بعيد العمال في العهد الملكي عبر النقابات العمالية لكن عيد العمال أخذ شكله التنظيمي في مصر مع قرار الرئيس "جمال عبد الناصر" عام ١٩٦٤ م بالاحتفال به بشكل رسمي وإحاطته بمراسم خاصة تتضمن خطاباً من الرئيس وسط حشود النقابيين والقيادات العمالية والاتحادات وجعله عطلة رسمية في مصر.
سأتحدث عن الفيلم من رؤية المشاهد وزاوية الناقد بصرف النظر عن وجهة نظري الحقيقية تجاه الحب وإن كان خلاقاً بالفعل أم لا؟!
حينما نتطرق لواحدة من مناسبات مصر القومية.. الحقيقة لزاماً أن نوجه أبصارنا صوب السينما كأحد أهم المرتكزات في تجسيد المشهد الثقافي المجتمعي.. وفيلم "الأيدي الناعمة" أحد أيقونات الاحتفال بهذه المناسبة فهو الفيلم الذي جسّد مفهوم العمل على نحو جليّ وهادف..
-فيلم "الأيدي الناعمة "عرض في ٢٩ ديسمبر ١٩٦٣م وهو من بطولة فارس السينما المصرية النجم الكبير "أحمد مظهر" وهو خريج الكلية الحربية عام ١٩٣٨م وزميل دفعة للرئيسين "جمال عبد الناصر" و"محمد أنور السادات" وكان بسلاح الإشارة وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م ثم اتجه للتمثيل ومن أبطال الفيلم أيضاً الفنان خفيف الظل "صلاح ذو الفقار" وقد تخرج من كلية البوليس وعمل في مصلحة السجون وتحديداً سجن مصر، وهناك جمعه القدر بالرئيس السادات وكان وقتها سجيناً في قضية اغتيال "أمين عثمان" عام ١٩٤٦م كما شارك في معركة الإسماعيلية والتي استبسلت فيها الشرطة المصرية أمام القوات البريطانية رافضة تسليم سلاحها وإخلاء المحافظة وذلك في ٢٥ يناير ١٩٥٢م والذي اتخذ بعد ذلك عيداً للشرطة المصرية نحتفل به كل عام.. ومن نجمات العمل حسناء الشاشة الفنانة مريم فخر الدين والتي قدمت أكثر من مئتين وأربعين فيلم، والفنانة صباح أو جانيت وهو اسمها الحقيقي

والملقبة بالشحرورة والصبوحة وصوت لبنان والتي قدمت سبعة وثمانين فيلماً بين مصري ولبناني والكثير من الأغاني المرحة الباعثة على البهجة والسعادة وقد قدمت في الفيلم أغنيتيّ الدوامة وباء فتحة باء.

والفيلم يحتل المركز السابع والسبعين في قائمة أفضل مائة فيلم في ذاكرة السينما المصرية وهو عن قصة الكاتب الكبير "توفيق الحكيم" وسيناريو وحوار "يوسف جوهر" وتدور أحداثه حول شخصيتين رئيستين.. الشخصية الأولى البرنس شوكت حلمي.. الأمير السابق الذي أممت ممتلكاته وأضحى بين عشية وضحاها لا يملك قوت يومه حتى أنه قايض نياشينه بكوز ذرة ولم يبقَ له سوى قصره الذي يسكنه وليس له حق التصرف فيه بالبيع ومع هذا التحول الذي أصابه وأصاب الطبقة الأرستقراطية في مصر بعد قيام ثورة ١٩٥٢م وسقوط حكم أسرة محمد علي باشا إلا أنه بقي أسير ذكريات الماضي متمسكاً بأصوله وألقابه ورافضاً الاعتراف بالواقع الاجتماعي الجديد الساعي للمساواة والارتفاع بقيمة العمل وجعله الحكم في منازل الناس وأقدارهم، ولذلك نجده يعتبر ابنتيه في تعداد الأموات، فالكبرى تزوجت من سالم المهندس العصامي البسيط، والصغرى امتهنت بيع اللوحات والعيش من ريعها..

أما الشخصية الثانية فهو الدكتور حموده دكتوراه في اللغة والنحو وتحديداً حرف الجر "حتى".. ومع ذلك فهو عاطل عن العمل أيضاً.. ومن هنا تتبلور الفكرة الرئيسة في الفيلم من أن العمل واجب وشرف وهو معيار المفاضلة بين الناس، فالجاه والسلطان دون عمل لا قيمة له، كما أنّ العلم وحده دون عمل أيضاً بلا قيمة، وأنّ الإنسان عبر الكد والعمل يستطيع أن يصنع المكانة الاجتماعية وفي الوقت نفسه يصقل مواهبه ومعارفه..

تتوالى أحداث الفيلم ويقع البرنس "شوكت" في حب أخت سالم الأرملة "كريمة" فيخلق الحب بداخله الرغبة والباعث على العمل وتغيير نمط حياته، فيحاول التكسب من نوتات عزف البيانو ويفشل لعدم اقتناع أحد بها، وينتهي به المطاف ليعمل كمرشد سياحي وينتهي الفيلم نهاية سعيدة بزواج شوكت من كريمة والابنة الصغرى من الدكتور حموده.

جاء ارتباط الفيلم الوطيد بمناسبة عيد العمال لأنّ الفيلم يعكس قيم العمل وفضائله وأهميته في تحقيق أهداف المرء وطموحاته ويجسد صورة الشخصية العصامية التي تعتمد على سواعدها في شق طريقها مهما كانت العقبات والتحديات، مستندة على العمل كقيمة لا تضاهى، وشرف لا يتأتى إلا لمن آمن

أن دوره في مجتمعه وإسهامه في النهوض به هو معيار قيمته الحقيقة في مجتمعه وليس بالمركز الاجتماعي الموروث فقط أو بالعلم فقط دون تطبيق..
هي قضية شديدة الأهمية وتحتاج مزيداً من الإحياء في واقعنا المعاصر، فالكثير من الشباب لديه قناعة أنه بمجرد حصوله على شهادته الجامعية فقد بلغ غاية المآل ولم يعد هناك من خطوات عليه أن يخطوها ويقبع في انتظار هطول العمل عليه دون مبادرة منه واجتهاد لصنع مستقبله كما أنّ العديد من الشباب أيضاً تجده معتمداً على ميراثه المادي والمعنوي من أهله وأجداده دون أن يصنع لنفسه مجداً شخصياً يقترن باسمه ويرفع من شأنه.
-مكان تصوير الفيلم يشهد خلافات بين الباحثين فالبعض يزعم أن مكان التصوير هو قصر "الطاهرة" الذي بناه المعماري الإيطالي الكبير "أنطونيو لاشياك" للأميرة "أمينة عزيزة" ابنة الخديوي إسماعيل ووالدة "محمد طاهر باشا" وقد قام الملك فاروق بشرائه باسم زوجته الملكة فريدة.. لكن ثمّة رأي أنّ التصوير كان في متحف "محمد محمود خليل" وحرمه.
أما عن أدوار الفنانين ومدى ملاءمتها لقصة الفيلم وأحداثه.. دور الفنانة الكبيرة "صباح" كان فيه الكثير من الحيوية وخفة الدم التي عرفت عنها، واشتهرت بها أدوارها وقد استطاعت أن تؤدي دور الفتاة المحبة باقتدار والقادرة على ترويض حبيبها صعب المراس، والتغيير من ملامح شخصيته العنيدة وتوجيهه بشكل غير مباشر ودون جرح كبريائه لارتياد ميدان العمل وجعله إنساناً جديداً صالحاً مفيداً لمجتمعه ومحيطه.
كما استطاع "أحمد مظهر" أن يتقمص دور البرنس شوكت بمهارة شديدة وفي لقاء نادر معه ببرنامج (لسه فاكر) مع الإعلامية القديرة "نهال كمال" شرح كيف تأثر ببعض الأمراء من الأسرة العلوية الذين عاصرهم وشاهد حياتهم عن كثب ومنهم قائده البرنس "إسماعيل داود" مدير سلاح الفرسان وشقيقه البرنس منصور داود والبرنس طاهر باشا، ولما كان هؤلاء الأمراء بمفازاة تامة عن صفات التعالي الأجوف والمفترض أن تكون لدى شخصية البرنس "شوكت" التي يقوم بدورها في الفيلم فقد استعار بعضاً من سمات وحركات وطريقة الفنان "استيفان روستي" لتخرج الشخصية على النحو الذي قدر لها أن تكون من التعالي على العمل لاعتياد الشخصية على حياة القصور المرفهة.
وقد نجح الحب أن يغير بشكل كبير في معالم شخصية البرنس ذلك أن الحب عاطفة جياشة ونبيلة وشعور عظيم قادر على صنع المعجزات بلا شك، ولكن

حتى يؤدي دوره بفاعلية لابد وأن يكون الطرفان مستعدين لخوض هذه التجربة أياً كانت نتائجها وعلى استعداد للتغيير للأفضل معها وبها وبشكل تكامليّ لا يفرض فيه طرف سيطرته على الطرف الآخر كيلا يخسره. على المستوى الشخصي فأنا لا أنتظر من الحب المبني على تفاوت طبقي أي نجاح فالواقع لا يقول هذا.. وحسبنا هذه الواقعة من أرشيف الصحافة المصرية.. يقولون في المثل: "ومن الحب ما قتل" وهذا ينطبق بحذافيره على الفتاة الخادمة "سيدة " والتي وجدت متوفية وبجثتها حروق بالغة وبحسب مجلة الدنيا المصورة في 13 يناير 1932م فقد ادّعت الأسرة التي تعمل لديها بحي الحسين أنها كانت تجفف ملابسها على نار "وابور غاز" فامتدت النيران لجسمها وأمعنت فيه حرقاً حتى فاضت روحها.. لما انتدب مفتش الصحة بقسم الجمالية طبيبة القسم للكشف على جثة الفتاة ارتابت أن الحادث يحمل شبهة جنائية، فحملت جثة الفتاة إلى مستشفى "قصر العيني (هي التسمية الصحيحة) لتشريحها تبين أن الفتاة قد قتلت وشويت جثتها حرقاً للإيهام بأنها ماتت محترقة.. من التحقيقات تبين أن الفتاة المليحة الجذابة جمعتها قصة حب بفتى من أبناء البيت الذي تعمل فيه خادمة، وكان صادقاً في حبه لها فتزوجها ضارباً عرض الأفق بكافة العوائق والفروق الطبقية فكان ما كان.. هذا أيضاً كان يمكن تحويله لفيلم عن حادثة واقعية.. لكن الفقراء لا أحد يعبأ بالتقليب في أوراقهم.. رحلوا كما جاؤوا في صمت ويكفيهم من الحياة أنهم أول من يدخل الجنة، فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَدخلُ الفُقراءُ الجنةَ قَبلَ الأغنياءِ بِخمسِمِائةِ عامٍ، نِصفِ يَومٍ).

نعود للفيلم.. بالتأكيد نجح أيضاً "صلاح ذو الفقار" في تجسيد صورة الخريج النمطي الذي ينشد من الشهادة الجامعية أن تفتح له أبواب العمل دون سعي منه.. يشكو ويندب حاله وهو المسؤول وحده عما وصل إليه.. فالعلم وحده لا يصنع المكانة.. هو أداة تعين على شق الطريق.. وبلوغ نهاية الطريق رهن بالكد والعمل المخلص والمتفاني.

التغير الذي وقع على بطل الفيلم الثاني "صلاح ذو الفقار" كان نابعاً من الحب أيضاً الذي جمعه بابنة البرنس... هنا الحب كان له مفعول السحر استطاع أن يضعه على جسر المسؤولية نحو حبيبته فالحب بلا شك مسؤولية تفرض على أصحابها إعمال العقل لتدبير متطلبات الزواج وتحقيق الاستقرار الأسري ولا

يتحقق ذلك إلا بالبحث عن موارد الرزق والعمل التي تضمن للحب الأمان وللزواج السعادة والاستمرار والاستقرار والهناء .
الدور المرسوم للفنانة "مريم فخر الدين" بمثابة الرسالة المحورية للفيلم وهو يبرز ملامح الشخصية العصامية التي ينبغي أن يحذو حذوها الشخصيتان الرئيستان في الفيلم كما أسلفنا..
والحقيقة أن النهاية كانت موفقة ومنطقية تماماً ومعبرة عن رسالة الفيلم السامية في دعم قيم العمل ورسم ملامح التغييرات الاجتماعية التي أعقبت ثورة 1952.. وأنه لا مكان للأيدي الناعمة التي لا تقدس العمل ولا تسعى في ركابه .
مخرج الفيلم هو المخرج "محمود ذوالفقار" وهو أول من دخل من أسرة ذو الفقار الفن وهو مخرج وممثل ومؤلف ومنتج سينمائي قدَّم أكثر من مئة فيلم في السينما المصرية جامعاً بين كل هذه المواهب.. جمعت القربى "محمود ذو الفقار" ببعض أبطال الفيلم وهم شقيقه "صلاح ذو الفقار" وزوجته "مريم فخر الدين" التي اقترن بها عام 1952 بعد وفاة زوجته الأولى "عزيزة أمير" والتي كان وقع وفاتها عليه كبيراً لدرجة أنه كاد يعتزل الفن تماماً بعد رحيلها ويعود لمجاله الأساسي في الهندسة وبعد عدة سنوات من زواجه بمريم فخر الدين حدث الانفصال بعد اعتدائه عليها بالضرب واستيلائه على نقودها وطردها حافية القدمين وبملابس النوم.. من الأمور الطريفة عن علاقته بنجوم الفيلم ما روته الفنانة "ليلى طاهر" في حديث تلفزيوني اعتبرت فيه فيلم "الأيدي الناعمة" الأقرب لقلبها وكانت مازالت في مرحلة صعودها الفني لكن مع ثقل أسماء النجوم المشاركين في العمل أبدت مخاوفها لمحمود ذو الفقار مخرج العمل فأكد لها أن اختيارها كان بعناية ونصحها نصيحة جميلة دانت لها بالفضل والنصيحة بحسب حديث الفنانة الكبيرة: "اشتغلي مع الكبير تكبري واوعي تشتغلي مع الأقل منك علشان أنتي تكبري لأن ده هياخدك وتنزلي تحت.. ومن وقتها لم تتعامل إلا مع النجوم الكبار"..
أما عن استقبال النقاد للفيلم فقد أحدث الفيلم في توقيت عرضه صدى واسعاً في الأوساط الثقافية في مصر وقد انتخبت من بين الآراء النقدية رؤية نقدية طريفة للمخرج الكبير "أحمد بدرخان" حول الفيلم نشرتها مجلة "الكواكب والاثنين" في عددها ٦٥١ في ٢١ يناير ١٩٦٤م وفيها اعتبر بدرخان الفيلم أفضل ما أخرجه "محمود ذو الفقار" إلا أنه في رأيه يحتاج شيئاً من الاختصار.. ويشير إلى قصة طريفة وهي أنه حينما قرأ القصة للمرة الأولى اقترح أن تعطى

شخصية الأمير لعبد السلام النابلسي حتى يمكن تقديمها في إطار كاريكاتيري أو "يوسف وهبي" الذي سبق ومثلها على المسرح ولم يكن يتصور أن "أحمد مظهر" سيؤدي هذا الدور ويكون أميراً عاطلاً بحق وحقيق..
وحول أداء الفنانين يرى بدرخان أن "صلاح ذو الفقار" نافس "أحمد مظهر" في الإجادة، لكنه يرى أن "صباح" استهلكت بعض زمن الفيلم في الغناء بلا مبرر وأن هذه الأغنيات أعاقت سير الحوادث وبطأت تتابع الفيلم .
أبرز اللمسات الذكية في الفيلم في رأي "بدرخان" هو المشهد الذي كان الأمير فيه يشرح معالم القاهرة للسياح، ثم توقف عند قصره ليقول أن القصر كان يسكنه أمير متعطل ويشير إلى أن المشهد الذي جعله يضحك من قلبه هو المشهد الذي يجمع "أحمد مظهر" و"صلاح ذو الفقار" وهما يتقدمان لامتحان عقده منتج سينمائي لاختيار من يمثل شخصية الأمير العاطل فاختار "صلاح ذو الفقار" وترك "أحمد مظهر" وهو يعتبرها من قفشات "توفيق الحكيم" الذكية، وكأن لسان حاله يقول إنّ المنتج أحياناً يجد أمامه الشيء الحقيقي ولا يفطن له..
فيلم "الأيدي الناعمة" وإن كان الأشهر إلا أن أعمالاً فنية سابقة عليه جديرة بالذكر منها:

فيلم" الورشة" عرض في 28 نوفمبر 1940 م:

قصة وسيناريو وحوار وتمثيل "عزيزة أمير" و"محمود ذو الفقار" وإخراج "إستيفان روستي" وتتلخص قصة الفيلم في أنّ الأسطى "علي عبد الرحمن" صاحب ورشة الميكانيكا يقرر السفر مع زملائه في رحلة صيد إلى الصحراء تاركًا زوجته "زينب" وابنه "مصطفى" وأمه وإذا بعاصفة تهب عليهم وهم في الطريق لينقطع بعدها خبر الأسطى "علي" ويستقر لدى الجميع الاعتقاد بأنه قد مات.. هنا يقوم "حسن" شقيق الأسطى "علي" بإدارة الورشة، لكن سرعان ما يخفق في ذلك وتتوقف الورشة ويعجز عن سداد أجور العمال وهنا تحاول الزوجة «زينب» إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتنزل معترك العمل وتدير ورشة زوجها الراحل مرتدية ملابس العمال وهنا تتعرف بالشاب "أحمد" الذي يأتي لإصلاح عربته في الورشة فيظنها في البداية رجلاً، وحينما يكتشف الحقيقة وكونها امرأة تتوطد علاقة الحب بينهما ويقرران الزواج وفي تمام موعد عقد قرانهما تقع الواقعة ويعود الأسطى "علي" مجدداً.. هنا يقرر "أحمد" التضحية بحبه وينضم لصفوف الجيش واهباً حياته للعمل الوطني.

فيلم "العامل" عرض في 4 فبراير 1943م:

والفيلم من بواكير إنتاج الفنان المحترم "حسين صدقي" ومن بطولته مع "فاطمة رشدي" وإخراج "أحمد كامل مرسي" وتدور قصة الفيلم عن نصير العمال وزعيمهم الشاب "أحمد" الذي يربطه الحب بجارته "هنية" والذي يتعرض لمتاعب جمة بسبب دفاعه الحماسي عن حقوق العمال فيتعرض لتلويث سمعته من جانب صاحب المصنع حتى يفقد عمله.. ومع إقبال الحياة عليه لا ينسى مسؤولياته تجاه العمال فيقيم لهم مؤسسات وشركات ترعى حقوقهم.. تبنى الفيلم الدعوة للإضراب عن العمل، حتى يرضخ أصحاب المصانع لتلبية مطالبهم جعل حكومة الوفد تبادر لوقف عرض الفيلم خشية تأجيج الحركات العمالية ضد المصالح الأجنبية والاتهام بمناصرة الشيوعية في مصر في ظل ظروف الحرب العالمية الثانية.. وتم حذف بعض المشاهد ثم إعادته للعرض مرة أخرى..

فيلم "ابن الحداد" عرض في 19 أكتوبر 1944م:

والفيلم من تأليف وإنتاج وإخراج وبطولة "يوسف وهبي" مع "مديحة يسري" وتدور قصة الفيلم عن "طه" ابن الحداد البسيط الذي يعود من أوروبا ويصبح مهندساً ويطور من صنعة أبيه حتى يصبح مالكاً لأكبر مصانع الحديد ويتزوج من ابنة أحد الأثرياء المدللة، والتي تعيش الحياة باستهتار وتهمل ابنها.. ثم يقرر أن يؤقلم زوجته مع عاداته وتقاليده فيدعي أمامها إفلاسه وأنه أصبح مثقلاً بالديون لكنها تقف لجانبه وتشاركه الحياة البسيطة في الحارة وتتعلم الطهي والغسيل وتضطلع بمهامها كزوجة وأم وهنا يرى "طه" أن زوجته اجتازت اختباره وأثبتت إخلاصها فيصارحها بحقيقة الأمر وأنه لم يشهر إفلاسه كما ادعى، وأنه أراد فقط من كل هذا أن يشعرها بمعاني المسؤولية.

فيلم " المظاهر " عرض 1 فبراير 1945م:

تأليف وإخراج كمال سليم وبطولة رجاء عبده، يحيى شاهين. وتدور القصة حول الأسطى الميكانيكي "محمود البنهاوي" رئيس نقابة العمال ومشجهم على الانضمام إلى نادي النقابة وممارسة الرياضة والذي تحبه "هنية مبارك" بعد أن كسر شوكة المعلم "مدبولي الطرابيشي" الذي فرض إتاوة على أهل حارة الخط بباب الشعرية، وامتنع عن دفع الإيجار لها واعتدى عليها.. فجأة تصارحها خالتها وهي على فراش المرض أنّ لها عماً ثرياً يدعى "رضوان حمزة" يمتلك عدة مطاحن والذي أخفى شراكة والد "هنية" له في المطاحن وأن لها الحق في نصفها بإيعاز من زوجته "منيرة هانم"، والتي كانت تسيطر بشكل

تام هي وأولادها عليه.. بدأت حياة "هنية" تتبدل وتنبهر بحياة القصور والمظاهر الخادعة فتنكرت لمحمود ووقعت في شباك "نبيل" الذي يدير المطاحن ويعلم بحقيقة نصيب "هنية" فيها فخطبها ليخفي تلاعبه بحسابات المطاحن.. كان "محمود" واسطة عمال المطاحن لدى "هنية" لتحسين أوضاعهم فإذا بنبيل يفصلهم وبينما تتصل "هنية " بنبيل لتستفسر عن فصل العمال، سمعت أصوات نسائية حوله، فارتابت فيه وأسرعت لمنزله لتسمعه هو وعشيقته "شريفه" يتحدثان عمّا يضمران نحوها ففسخت الخطبة وحاولت العودة لمحمود مرة أخرى، فأنكرها كما أنكرته وبينما "نبيل" يحاول الاستيلاء على صفقة قمح من المطاحن كان العمال له بالمرصاد فأبلغوا "محمود" والذي بدوره أبلغ البوليس ونجحوا جميعاً في القبض على "نبيل" وعصابته.. حاول "رضوان" التعبير عن الامتنان لمحمود بتعيينه مديراً للمطاحن خلفاً لنبيل لكن "محمود" أنكر سيطرة زوجته عليه فاستشعر "رضوان" أن الوقت قد آن ليستعيد زمام سيطرته على بيته وحجم من زوجته "منيرة هانم" فيما طالب أولادها بالتخلي عن البطالة والنزول للعمل وطالب هنية بالزواج من محمود فهو الزوج المناسب لأنه ليس عاطلاً.

وعلى هامش هذه الحلقة وقد تحدثنا عن نادي الفروسية وطاهر باشا فحري بنا أن نتحدث عن هذه الحادثة الطريفة من أرشيف مجلة الاثنين والدنيا عام 1939م حيث رفض نادي الفروسية السماح لبعض الشباب المصريين من أبناء الأسر العريقة من الفلاحين بالانضمام لعضوية النادي في تفرقة طبقية استدعت تدخل رئيس الوزراء الذي قال لسعادة محمد طاهر باشا على رؤوس الأشهاد أنه فلاح ابن فلاح ويتشرف بالانتساب إلى الفلاحين وأنّ حكومة جلالة الملك الديموقراطي لا تسمح بعودة نظام التفرقة بين الطبقات مشيراً على معالي وزير المعارف بقطع إعانة الوزارة عن النادي.. الطريف هو موقف النادي الأهلي نادي الفلاحين الذين يأنف منهم نادي الفروسية، حيث تخلى النادي الأهلى عن كرم الفلاحين وآزر موقف رئيس الوزراء، وطالب نادي الفروسية بالجلاء عن أرض مؤجرة لهم من النادي الأهلي لمدة عامين، ومضى العام الثالث ونادي الفروسية يماطل في تنفيذ تعهداته.

في النهاية ولأنّ عيد العمال له معزة شخصية في قلبي ليس لأني فقط من موظفي مصر، بل لأنه شهد مولد ابنتي الكبرى نور والتي بها أكنى "أبا نور" أريد أن أقول إنّ مصر تستطيع ومصر قادرة على النهوض والبناء دوماً وإنّ

الدعوة إلى العمل بإخلاص وجد وإيمان بهذا الوطن كفيل بأن يرسم مستقبلاً قريباً لمصر تتصدر فيه الأمم كافة، وسيظل عمال مصر بسواعدهم القوية دوماً على العهد في مواصلة حركة التنمية والبناء وتحقيق النجاحات المتوالية، وقد حظي عمال مصر باهتمام كبير بعد ثورة 23 يوليو 1952 م وفي عهد عبد الناصر الذي شهد طفرة غير مسبوقة في البناء والتعمير والمشروعات الصناعية العملاقة لتحقيق رؤية مصر وخططها الاستراتيجية طويلة المدى في عهده بسواعد وكفاءات مصرية وطنية مخلصة.. صحيح أنّ الحلم انطفأ لفترة لكنه قابل للإحياء يوماً ما ..

السؤال الثامن

توقعت في كتابك الأخير "بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان" أن يتضمن قطوفاً من التاريخ عن العيد كما هو الحال في كتبك الرمضانية السابقة؟!

عادة ما أستبق قدوم شهر رمضان بالعمل المكثف على تجهيز القدر الأكبر من المقالات وإتمامها ومراجعتها وإرسالها للصحف التي تستضيف مقالاتي الرمضانية كل عام في مصر والعراق والجزائر، وأترك مقالات العيد لدخول شهر رمضان المبارك لأقوم بكتابتها، ولكن هذا العام جاء ميلاد ابنتي "غزل" حفظها الله مع نهاية شهر رمضان وقدوم العيد، مما جعلني أتأخر في إنجاز هذه المقالات ويداهمني الوقت واضطررت أن أرسل الكتاب دون مقالات العيد، التزاما بمواقيت النشر كما لم أستطع أن أنجز سوى مقال واحد فقط نشر بالأهرام المسائي..
وتقديراً لسؤالك فإنه يسعدني أن أضمن إجابة هذا السؤال مبحثاً كاملاً عن الأعياد..

....

الأعياد

العيد في أربعينيات القرن الماضي

يعد عيدي الفطر والأضحى من المناسبات الاجتماعية المحببة لنفوس المصريين على اختلاف أطيافهم، حيث تسود الألفة ويجتمع الشمل ويتزاور الأفراد وتلتقي الأسر.. وبالرغم من عموم ذلك لكن تبقى في نفوس الأشخاص وأفئدتهم مع العيد ذكريات خاصة تحتفر وجدانهم ولا تُنسى ولا تؤول لزوال.. علاوة على عادات وتقاليد تميزهم ويداومون عليها مهما تباعدت السنون وزادت المسؤوليات والأعمال..
ونختار في مبحثنا هذا فترة الأربعينيات من القرن المنصرم وتحديداً عام 1947م واختيارنا لهذا العام لا يخلو من أسباب ودلائل فهو عام كانت فيه مصر في حالة استقرار نسبي سبقته عاصفة الحرب العالمية الثانية التي ألقت بظلال ما خلفته من دمار على كافة مناحي الحياة شرقاً وغرباً، وتلاه حرب فلسطين والحشد النفسي والعسكري لها عام 1948م وما خلفته من تداعيات على الأمة العربية والإسلامية..

نبدأ رحلتنا مع أقطاب السياسة والحكم في البلاد وسنعتمد هنا على العدد 688 من مجلة الاثنين والدنيا في 18 أغسطس 1947م-عدد العيد- ونبدأ بزعيم الأغلبية وحزب الوفد "مصطفى النحاس باشا" ورئيس وزراء مصر سبع مرات.. ومن عاداته في عيدي الفطر والأضحى أن يزور مع بشائر اليوم الأول من العيدين ضريح سعد زغلول باشا ويلقي خطبة سياسية بين أنصاره ومؤيديه يستعرض فيها مجمل أحداث العام ثم يستقل القطار بعد ذلك إلى "سمنود" بمحافظة الغربية مسقط رأسه.. وهناك يعود أقاربه ويزور ضريح والديه الكريمين وتبلغ مدة إقامته هناك من يوم إلى يومين بعدها يعود أدراجه إلى القاهرة ليستقبل مهنئيه بالعيد من أعضاء الوفد ولجانه والهيئة الوفدية. كما يمضي بعض أيام العيد في عزبة عديله "خليل الجزار بيك" وينفق الوقت في ملاعبة ومداعبة أنجال شقيقة حرمه "زينب هانم الوكيل" وهو يعدهم بمثابة أولاده، إذ لم يأذن الله أن يرزق بالذرية ويوزع عليهم عشرات من الجنيهات نقوداً جديدة كعيديات تدخل في نفوسهم الفرحة والبهجة، وتشعرهم بأجواء العيد وهو وسطهم..

نأتي لعلي ماهر باشا رئيس وزراء مصر لأربع مرات، السياسي البارز ورجل الساعة في المنعطفات الخطيرة من التاريخ الملكي المصري والذي يمضي أيام العيدين في عزبته بالقصر الأخضر، ودائماً ما تكون عيدياته مبهجة لمهنئيه إذ كانت بمثابة المفاجأة التي ينتظرها ابنه "محمد" حيث كانت تشتمل على مبلغ محترم فضلاً عن عيدياته للعمال والموظفين في عزبته بما يعادل راتب أسبوع أو أسبوعين، ومن طقوسه أن يوزع هذه العيديات بعد صلاة العيد بهم وسط هتاف حار له..

أما "إسماعيل صدقي باشا" رئيس وزراء مصر لثلاث مرات، السياسي الصارم، الاقتصادي المحنك، فيستقبل العيد بابتسامته المعهودة وعيدياته جنيهات من الورق الجديد ومثلها من الذهب.. وهو يؤثر أحفاد أنجال الأستاذ إبراهيم بيك رشيد وابنة نجله الأستاذ عزيز صدقي فيتولى إيقاظهم في صباح العيد مبكراً، ويلاطفهم ويداعبهم في حديقة داره حتى قبيل الظهر، وبعدها يستقل سيارته إلى نادي محمد علي.. وهو مجامل بطبعه يلبي دعوات أصدقائه لتمضية العيد في ضياعهم القريبة من القاهرة.. مشاغل "إسماعيل صدقي باشا" وإنهماكه لساعات معتكفاً في مكتبه لمراجعة بعض الشؤون السياسية قد تنسيه

العيد أحياناً، لكن أحفاده لم يكونوا لينسوا فيذهبوا إليه مذكرين إياه: "النهاردة عيد يا باشا".. فيتذكر ويتأسف لهم ويقبلهم فرداً فرداً..

أما "مكرم باشا عبيد" السياسي القبطي الشهير، فمن عاداته أن ينتهز فرصة العيد ليهنئ أصدقاءَه المسلمين متحدثاً في الشؤون السياسية.. وعادة ما يحضر لزيارته في يوم العيد أنجال شقيقة صديقه الأستاذ "زهير صبري" وهو يحبهم حبّاً جمّاً فيجلس إليهم يلاطفهم ويلاعبهم ويمنحهم العيدية.. في المقابل كان يتلقى من أصدقائه المسلمين هدايا العيد، مثل: الكعك، خاصة كعك السيد سليم باشا، وكذلك الغريبة، ويقدم منها لضيوفه الشاكرين له تهنئته بالعيد..

أما رئيس الوزراء آنذاك "محمود فهمي النقراشي باشا" والذي شغل المنصب مرتين.. يهتم في العادة بملابس أولاده الجديدة "هاني" و"صفية"، لكنه قد ينسى بسبب أعباء الوزارة فيذكراه بها.. من عاداته قضاء أيام العيد في ضيافة أصدقائه من أعضاء الحزب السعدي الذين يملكون ضياعاً قريبة من القاهرة، لكن في هذا العام الذي نحن بصدده تخلف عن عاداته لوجوده في "أمريكا" لعرض قضية مصر واستقلالها في مجلس الأمن..

"حافظ رمضان باشا" البرلماني السابق وزعيم المعارضة ورئيس الحزب الوطني خلفاً للزعيم "محمد فريد باشا" كانت من هواياته المعتادة والتي تصادف العيد الأسفار والرحلات وروي عنه تسلقه قمة جبال الألب غير مبالٍ بالموت.. لكن ظروف الحرب العالمية الثانية وتواجد ولديه غير من عاداته فراح يمضي عطلة العيد بينهم، ويستقل سيارته في صبيحة أول أيام العيد حيث يتنزه في الأهرام ويتناول الفطور في فندق "مينا هاوس"، ثم يعود لمنزله لاستقبال زائريه.

ومن السياسة إلى الفن وأغرب هدايا العيد التي تلقتها الفنانات في حياتهن، وتبدأ المجلة بالفنانة "راقية إبراهيم" والهدية الغريبة التي تلقتها من أحد المعجبين، وكانت عبارة عن صندوق كبير من الكرتون الأبيض مزين بأشرطة حريرية ملونة ثمينة. وعلى روعة الهدية من الخارج كانت المفاجأة تنتظرها من الداخل إذ وجدت الصندوق فارغاً، وعلى أحد جدرانه رسالة رقيقة وجريئة في نفس الوقت تقول: "إنّ قلبي ناصع البياض وكبير جدّاً وفارغ كقلب هذا الصندوق، فمتى تسكنينه يا حبيبتي؟!".

أما الفنانة "أمينة نور الدين" فهديتها كانت من إحدى صديقاتها من أيام المدرسة، وكانت عبارة عن علبة كبيرة بداخلها علبة أخرى مليئة بمحلول

"الفليت"- المستعمل لقتل الذباب- وبها رسالة.. تقول صاحبتها: "إنني أرسل لك أهم هدية تحتاجين لها لتطهري بها الجو من صديقاتك الجديدات اللواتي انغمست في حبهن وهجرت أختك ناهد".

"روحية خالد" كان من نصيبها هدية غريبة إذ تلقت طرداً صغيراً بداخله "بروش" من الماس اللامع وبرفقته بطاقة تقول: "ستعرفين بعد أيام من هو الذي أهداك هذا البروش؟!"

اندهشت الفنانة أن الأيام مضت دون أن يعرف صاحب الهدية بنفسه.. لكن المفاجأة الأكبر كانت في إحدى الأيام حينما رأى صديق لها من تجار المجوهرات "البروش" بالمصادفة، وكشف لها أنه من الزجاج العادي ولا يساوي أكثر من قروش معدودات.

الفنانة "فاطمة رشدي" الملقبة بسارة برنار الشرق كان طالعها سعيداً في هذا العيد، إذ حدث أن فقدت قبلها بفترة حقيبتها بعربة تنتظرها أمام إحدى الوزارات وبها عشرة جنيهات ودفتر مذكرات خاص لكن "اللص الشريف" الذي حصل على هذه المتعلقات أعادها لمنزلها تحت ستار ساع خاص من "محل أحذية حسب الاتفاق" لتندهش وهي تفتح الصندوق وتجد متعلقاتها قد عادت إليها مرة أخرى وكانت قد فقدت الأمل في استعادتها..

أفردت المجلة أيضاً شطراً منها عن عادات المصريين في الخارج في يوم العيد.. فنقلت عن إمام الحضرة الملكية فضيلة الأستاذ "عبد العزيز المراغي" طقوس المصريين بإنجلترا في العيد.. حيث يجتمع المصريون صباحاً في النادي المصري في لندن، ويتعارفون على بعضهم البعض وعلى إخوانهم من الهنود المسلمين ويقضون الوقت سوياً في الحديث والسمر، ثم يذهبون لصلاة العيد في جامع "روكنج" والذي كانت مساحته صغيرة، لذا كانت تقام خيمة كبيرة خارجه لاستيعاب الجموع من المصلين.. بعد ذلك يتوجه المصريون إلى دار السفارة المصرية لتهنئة السفير بالعيد.

أما "ألمانيا" فقد نقلت المجلة عن الدكتور "محمد البهى" أنّ المصريين يقصدون في العيد ضواحي "هامبورج" أو "برلين" ويقضون وقتاً ممتعاً في حدائق "بانزي" أو الغابة الخضراء الكثيفة عبر قطار يمر عن طريق نفق تحت الأرض.

ويبدأ العيد بزيارة المصريين لدار المفوضية في "برلين" حيث يتبارى الخطباء في الإشادة بمصر وملكها "فاروق" وقتئذ ويختتم الحفل بخطبة من الوزير المفوض وبرقية إلى كبير الأمناء بمصر.

العيد دائماً ما يكون فرصة ذهبية للزواج وعقد القرآن، لكن في هذه السنة استعرضت المجلة من خلال حواراتها مع أحد المأذونين الشرعيين حالات طريفة من الطلاق أبرزها طلاق شيخ وقور لزوجته الصبية الصغيرة الحسناء لأنها ألحت عليه في ركوب "مرجيحة" فطاوعها رغماً عنه، مما سبب له جرحاً غائراً بعدما تجمع الأطفال من حوله وراحوا يتندرون ويتنمرون عليه ويهزؤون منه. من أسباب الطلاق في العيد الطريفة أيضاً أن رهنت زوجة "دولاباً" قديماً لدى "مرابي" لتدبر نفقات الكعك على أن تعيده بعد العيد.. وهذا كله دون علم زوجها والذي ما إن عاد من محل عمله وعلم بما حدث حتى لطم خديه إذ كان بالدولاب خبيئة عمره، وكل ما وفره من مال طيلة حياته، وقدره مائة وخمسين جنيه.

هرع الزوج وزوجته للمرابي لاسترجاع الدولاب على وجه السرعة لتكون المفاجأة عظيمة ومروعة على الزوج الذي وجد الدولاب فارغاً من تحويشة عمره، وكان عقاب المرأة طلاقها.. لكن يبقى الأندر في كل هذه الأسباب ما اعتاده أحد الموظفين في اصطناع شجار مع زوجته قبل مجيء العيد بأيام حتى تخرج لأهلها غاضبة.. وبالتالي يتخلص من متطلباتها أثناء العيد ونفقاته الكثيرة، ثم يصالحها ويعيدها مرة أخرى بعد انقضاء العيد.. لكن الواضح أن تكرار هذه الحادثة جعل أهل الزوجة مدركين لحيلته الخبيثة فاحتالوا عليها هذه المرة وعملوا على إجهاضها في المهد فأوصوا ابنتهم بالاستسلام التام لأي استفزاز والمهادنة والبعد عن مسببات الزوج لشجاره المصطنع.. فوجيء الزوج بزوجته لا تحرك ساكناً تجاه أسبابه المعتادة في الشجار.. وأعيته الحيل والعيد على الأبواب لا يفصله سوى أسبوع واحد فغادر المنزل غاضباً ولم يعد إلا بعد العيد ليفاجأ بزوجته في منزل أبيها ومصممة على الطلاق وقد تم.

نختتم رحلتنا بعالم السينما وفيلم عيد الفطر عام ١٩٤٧م وهو فيلم "المنتقم" بطولة الفنان "أحمد سالم" والمطربة "نور الهدى" و"بشارة واكيم" و"محمود المليجي" و"لولا صدقي" و"دولت أبيض" والفيلم قصة "إبراهيم عبود" وسيناريو "نجيب محفوظ" و"صلاح أبو سيف" وحوار "السيد بدير".

لا غرو أن نعطي مساحة في مبحثنا عن قصة الفيلم التي تعكس قيم وأهداف المجتمع آنذاك.. تتخلص القصة في أن "عزوز بيه" الذي لا يجيد القراءة والكتابة قرر أن يتحول للاستثمار في قطاع الأدوية فباع معمله لصناعة الحلاوة الطحينية وأقام محله معملاً لإنتاج الملح الإنجليزي والأقراص والقطرة والششم.. كانت دفة الأمور تدار من جانب الدكتور "صادق" الذي أوقع "إلهام" ابنة "عزوز بيه" في غرامه.. بدأت الأحوال تنقلب رأساً على عقب من حوله بعد التحاق الدكتور "أحمد" بالمعمل، حيث نجح في تطوير عمله وبلورة أهدافه نحو أبحاث السرطان ومحاولة الوصول لعلاج له مما جعله مثار إعجاب "عزوز بيه" وابنته "إلهام" التي تحولت بعواطفها تجاه الدكتور "أحمد" وتمت خطبتهما.. هذا كله أوغر صدر الدكتور "صادق " الذي قرر الانتقام بأن وضع مادة كيماوية متفجرة في أنابيب المعمل الخاصة بتجارب غريمه الدكتور "أحمد" فحدث انفجارٌ كبيرٌ أفقد الأخير بصره، وهنا تخلت عنه "إلهام" وأصبح وحيداً يقيم مع والدته "أمينة هانم" المريضة بالقلب حتى دخلت السكرتيرة "نور" حياته.. كانت نظرة الدكتور "أحمد" تجاه المرأة قد تبدلت لسلبية بعدما اقترنت "إلهام" بالدكتور "صادق" مشترطة أن تكون العصمة بيدها.. نجحت "نور" في أن تعيد ثقة الدكتور "أحمد" بالمرأة مجدداً.. بعد أن أجرى الدكتور "أحمد " عملية في "أمريكا" لاستعادة بصره أخفى أنه صار مبصراً، وخطط للانتقام من الدكتور "صادق" بالطريقة نفسها؛ ليذيقه من الكأس نفسه، لكن "نور" استنكرت عليه ذلك وسارعا لإنقاذ "صادق" والذي اعترف بجريمته فطرده "عزوز بيه " كما طلقته "إلهام" وكعادة الأفلام الأبيض والأسود في النهايات السعيدة، فقد تزوج "أحمد " من "نور."

أكيد الحياة جميلة بهذا الشكل.. لكن الواقع الشعبي لم يكن كذلك.. مشكلة مصر دائماً الفجوة الكبيرة بين الأثرياء فيها والمعدمين.. السعداء بأموالهم في قصور تحيطها حدائق غناء، والكارهون للحياة من ضيق سعة اليد يعيشون في عشش وأوكار.. لا مساحة للتلاقي بين الجانبين إلا على الصحف التي تفرد صفحاتها لحفلات فلان واجتماعات علان وأحياناً وعلى استحياء تأتي على ذكر منطقة شعبية يعاني أهلها الفاقة من باب ذر الرماد في العيون.. لعلّ مسؤول يشعر أو شخص ذو فاقة يشعر أن هناك من هو أكثر عوز منه أو من باب جذب الفقراء لجمهور مقتني الصحف..

في العدد 683 من مجلة الاثنين والدنيا في 14 يوليو 1947م وأسباب الانتحار في مصر في شكل رسوم مستقاة من آخر إحصاء لحوادث الانتحار والشروع فيه في مدى عام واحد.. (16 بسبب كوارث مالية -86 بسبب المرض الطويل - 30 فراراً من الشقاق العائلي -9 خشية العار والفضيحة -12 لأسباب غرامية - 54 بسبب الفاقة والبؤس -22 بتأثير سوء معاملة الأهل -24 بسبب الشقاق الزوجي المتواصل -17 بسبب الحزن الشديد).. كل هذه الأسباب تحدثنا عن صور منها في كتب سابقة لذلك سنتوقف هنا عند الانتحار بسبب "المرض الطويل" أو ما نسميه اليوم "الموت الرحيم"

يعد المؤرخ" Suetonius سوطونيوس "أول من استخدم مصطلح " الموت الرحيم " عند توصيفه لموت الإمبراطور" أوغسطس" بشكل سريع ودون معاناة في أحضان زوجته "ليفيا". ومن أشهر دعاته الطبيب الأمريكي "جيكوب جاك كيفوركيان" والذي عمل على تسهيل انتحار ما لا يقل عن مائة وثلاثين شخص، تحت شعار "الموت ليس بجريمة". ومن أشهر قضايا "الموت الرحيم" التي أثارت جدلاً في الأونة الأخيرة أن أنهى "دريس فان أغت" رئيس حكومة هولندا في الفترة من 1977 وحتى عام 1982م والمعروف عنه مناصرته للقضية الفلسطينية وزوجته الحبيبة أوجيني التي كان يلقبها "فتاتي" حياتهما عن طريق القتل الرحيم "يداً بيد" وقد بلغا من العمر ثلاثة وتسعين عاماً منهم أكثر من سبعين عاماً في رباط الزواج وذلك في فبراير 2024 م.

والموت الرحيم محرم في الشريعة الإسلامية سواء أكان عن رغبة المريض الميؤوس من شفائه أو طبيبه الخاص، ففي صحيح البخاري عن جندب بن عبد الله أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كانَ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ به جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فأخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بهَا يَدَهُ، فَما رَقَأَ الدَّمُ حتَّى مَاتَ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عليه الجَنَّةَ). وقال تعالى في سورة النساء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29).

وفي مصر ناقشت الدراما هذه القضية الشائكة في المسلسل الدرامي "أوبرا عايدة" عام 2000م تأليف أسامة غازي وإخراج أحمد صقر وبطولة يحيى الفخراني وحنان ترك . وهي مقتبسة من قضية الممرضة "عايدة نور الدين" بقسم العناية الفائقة في مستشفى الإسكندرية الجامعي والتي اتهمت بالقتل العمد للمريض "عبد القادر إبراهيم" وذلك بحقنه بعقار "الفلاكسديل" المرخي

للعضلات للمريض دون الاستعداد الطبي المتبع عند الاستخدام مع علم الممرضة أن المجني عليه في حالة لا تتطلب استعمال العقار، مما أحدث به الأعراض المذكورة بالتقرير الطبي، وقد عدل بعد ذلك توصيف الجريمة إلى تهمة إعطاء مادة ضارة أفضى لموت، وبالتالي خففت العقوبة من الإعدام إلى الحبس خمس سنوات، وقد دارت أحداث القضية بين عامي 1997م و1998 م، وهي قضية أبرزت حجم الإهمال الجسيم بالمستشفيات المصرية آنذاك.

....

الشعر وحكاياته في العيد:

يعد الشعر بمثابة ذاكرة الأمم ولسان حالها النابض بالحياة، وبخاصة في أمتنا العربية والإسلامية التي يحتل فيها الشعر مكانة سامية بارزة، وبهذا ترك العنان للشعر أن يحلق في آفاق شتى عبر العهود المختلفة راصداً المناسبات المختلفة ومتفاعلاً مع طقوسها، وفي ذلك تتنوع مذاهبه بين مديح وتهانٍ ووصف وأحزان.. وتعد المناسبات الدينية كعيدي الفطر والأضحى من المحافل الاجتماعية الملهمة لجمهور الشعراء تحفز قرائحهم وتلهب خيالاتهم الخصبة الواسعة لتؤرخ لهذه المناسبات الثرية بدقة وترصد صورها المبهرة بجلاء وترسم بريشة الكلمات وقع الفرحة في نفوس الناس وتعكس آمالهم وأحلامهم مع العيد.. لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم وغنيّ وفقير، ففي عالم الشعر الكل سيان والفرحة تعم وتسود..

وبين ربوع الشعر وجزالة كلماته وتنوع دلالته وفخامة بحوره نمضي في رحلتنا..

ونبدأ بشعر المديح في العيد ومنه قول الشاعر "أشجع بن عمرو السلمي أبو الوليد من بني سليم من قيس عيلان (عانى من إنكار البعض لنسبه في البداية ولما صار من فحول الشعراء وأكابرهم ثبت نسبه)" في مدح الخليفة العباسي "أبُو جَعْفَر هارُون الرَّشِيد بن مُحَمَّد المِهْديّ بن عَبدِ الله المَنْصُور بن مُحَمَّد بن عَلِيُّ بن عَبدِ الله بن العَبَّاس الهاشِميُّ القُرَشيُّ" وقد عاد الأخير ظافراً ومحرزاً نصراً مؤزراً بالاستيلاء على حصن "هرقلة" ووضع حداً لتهديدات إمبراطور الروم "نقفور الأول".. إذ يقول:

"لا زِلتَ تَنشُرُ أَعياداً وَتَطويها
تمضي بِها لَكَ أَيّامٌ وَتُثنيها
مُستَقبِلاً بَهجَةَ الدُنيا وَلَذَّتَها

أَيّامُها لَكَ نَظمٌ في لَياليها
العيدُ وَالعيدُ وَالأَيّامُ بَينَهُما
مَوصولَةٌ بِكَ لا تَفنى وَتُفنيها
وَلا تَقَضَّت بِكَ الدُنيا وَلا بَرِحَت
يَطوي لَكَ الدَهرُ أَيّاماً وَتَطويها
وَلِيَهنكَ الفَتحُ وَالأَيّامُ مُقبِلَةٌ
إِلَيكَ وَالنَصرُ مَعقودٌ نَواصيها
أَمسَت هِرقلَةُ مَكلوماً جَوانِبها
وَناصِرُ الدينِ بِالتَدبيرِ يَرميها
مَلَكتَها وَقَتَلَت الناكِثينَ بِها
بِنَصرِ مَن يَملِكُ الدُنيا وَما فيها
ما روعِيَ الدينُ وَالدُنيا عَلى قَدَمٍ
بِمِثلِ هارونَ راعيهِ وَراعيها."

كان الصراع قد اشتعل بين الطرفين إثر رسالة من "نقفور" لهارون الرشيد فيها استعلاء ومكابرة وامتناع عن دفع الجزية يقول فيها: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق، فحملت إليك من أموالها، ما كنت خليقاً بحمل مثله إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك."فرد عليه "هارون" في اللحظة نفسها وقد اشتد غضبه وعلى ظهر الورقة ذاتها كتب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه لا ما تسمعه.."!

نعود أدراجنا مرة أخرى مع المديح في العيد حيث نجد الشاعرَ "أبا الحسن علي بن إبراهيم المعروف بابن العلاني المعري" مادحاً صاحب طرابلس "فخر الملك، عمّار بن محمد بن عمّار"، وكان الأخير قد تحمل عبء المقاومة الإسلامية ضد حصار الفرنج لبلاده الذي دام خمس سنوات، وكان "بنو عمار" في البداية قضاة "طرابلس" ثم صاروا أمراءَها، وقد حاول "فخر الملك"

الاستنجاد بالسلاجقة في بغداد لكنهم خذلوه.. يقول الشاعر سالف الذكر في أبيات استحبها "فخر الملك" وفضلها عما جاد به أقرانه:

"ودّعت شهراً أنت في هذا الورى
بعلوّ قدرك مثله في الأشهر
تقضي فروض الصّوم أكرم صائم
وأهلّ عيد الفطر أكرم مفطر
لا تعدم الأعياد إن ألبستها
ببقائك الممدود أحسن منظر
فإذا سلمت فكلّ عيد عندنا
موف على عيد أغرّ مشهّر."

ويقول الشاعر العباسي "أبو إسحاق إبراهيم بن الهلال بن إبراهيم الحراني الصابي" في "المطهر بن عبد الله" وكان "أبو العباس" من الصابئة الحرانيين غير أنه كان من المعظمين لشعائر الإسلام ومن المستشهدين كثيراً بالقرآن الكريم.. يقول:

"عيد إليك بما تحب يعود
بطوالع أوقاتهن سعود
متباركات كل طالع ساعة
يوفي على ما قبله ويزيد
يأتيك من ثمر المنى بغرائب
معدومها لك حاصل موجود
قضيت شهر الصوم بالنسك الذي
هو منك معروف له معهود
أكثرت فيه من تهجد خاشع
ما يطمئن بمقلتيه هجود
فاشرب وسق عصابة قد مسها
عطش وجهد في الصيام جهيد"

ويقول أمير الشعراء "أحمد بك شوقي" في تهنئة الخديوي "عباس حلمي الثاني" بالعيد: "العيد هلّل في ذُراك وكبّرا

وسعى إليك يزف تهنئة الورى
وافى بعزك يا عزيز مهنئا
بدوام نعمتك العبادَ مبشِّرا
نظم المنى لك كالقلادة بعدما
نشر السعود حيال عرشك جوهرا
لاقى على سعد السعود صباحه
وجه تهلل كالصباح منوِّرا
سمحا تراه ترى العناية جهرة
والحق أبلج في الجبين مصوَّرا
والله توَّجه الجلالة والهدى
والعز والشرف الرفيع الأكبرا."

ومن التهاني والمديح نأتي على ذكر فضائل العيد وسجاياه في تهذيب سلوكيات المرء والنهوض بها ومران النفس على التواضع وترك الخيلاء والزهو، وفي ذلك يقول الشاعر الأندلسي "أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُجيبي المعروف باسم أبي إسحاق الألبيري (اشتهر بإنكاره على صاحب غرناطة "باديس بن حبوس الصنهاجي" اتخاذ "إسماعيل بن النغرالة" اليهودي وزيرًا له): "

"ما عيدُكَ الفَخمُ إلّا يَومَ يُغفَرُ لَك
لا أَن تَجُرَّ بِهِ مُستَكبِراً حُلَلَك
كَم مِن جَديدِ ثِيابِ دينُهُ خَلَقٌ
تَكادُ تَلعَنُهُ الأَقطارُ حَيثُ سَلَك
وَكَم مُرَقَّع أَطمارٍ جديدِ تُقىً
بَكَت عَلَيهِ السَما وَالأَرضُ حينَ هَلَك
ما ضَرَّ ذَلِكَ طِمراهُ وَلا نَفَعَت
هَذا حُلاهُ وَلا أَنَّ الرِقابَ مَلَك."

وهل تخلو الأعياد أحياناً من أحزان تدمي القلب وتبكي المآقي؟! فها هو الشاعر "أَبُو فِرَاسْ الحَارِثُ بْنُ سَعِيدْ بْنِ حَمْدَانْ الحَمْدَانِي التَغْلِبِي الرَّبَعي" ينقل لنا تجربته وهو يسفر في أغلال الأسر في بلاد الروم، حيث دارت عليه الدوائر

ووقع في قبضة الروم عند "مغارة الكحل"، ثم نقل لمنطقة "خَرْشَنة" على الفرات وقد أتى العيد وهو وحيد على هذه الحالة فيقول:

"يا عيدُ ما عُدتَ بِمَحبوبٍ
عَلى مُعَنّى القَلبِ مَكروبِ
يا عيدُ قَد عُدتَ عَلى ناظِرٍ
عَن كُلِّ حُسنٍ فيكَ مَحجوبِ
ياوَحشَةَ الدارِ الَّتي رَبُّها
أَصبَحَ في أَثوابِ مَربوبِ
قَد طَلَعَ العيدُ عَلى أَهلِهِ
بِوَجهِ لاحُسنٍ وَلا طيبِ
مالي وَلِلدَهرِ وَأَحداثِهِ
لَقَد رَماني بِالأَعاجيبِ."

لا يخلو عيد من طرائف مجتمعية فنجدُ "أبا محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِيُّ" في كتابه "عيون الأخبار" ينقل عن أحد الشعراء وقد ضج من بخل جيرانه في العيد قوله:

"وجيرة لا ترى في الناس مثلهم
إذا يكون لهم عيد وإفطار
إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم
وليس يبلغنا ما تنضج النار."

ويقول "أَبُو القَاسِمِ إسماعيلُ بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ أَحمَدَ بْنِ إدريسَ القَزوِينِيّ، الطَّالقَانيّ، الأصفَهَانيّ، المعروف بالصاحب بن عباد" معقباً على خطأ قاضٍ في تحديد يوم العيد وهلال شوال بقوله: "إنّ قاضينا لأعمى أم على عمدٍ تمادى؟!" ثم أنشد:

"يا قاضِياً باتَ أَعمى
عَن الهِلالِ السَعيدِ
أَفطَرتَ في رَمضانٍ
وَصمتَ في يَوم عيدِ"

حقاً إنّ الشعر مرآة الشعوب والناقل الأمين لهويتها والمعبر دوماً عن خطوبها وملامح حياتها عن كثب.

....

كعك العيد عادات صحية واجتماعية

قبل حلول عيد الفطر المبارك تبدأ الأسر المصرية في التحضير لكعك العيد والبسكويت مبكراً حيث تزدحم المخابز والأسواق به وتتبارى الأسر في شرائه ليكون باعثاً على البهجة والفرح، حيث يتجمع أفرادها حوله.. عادات تضرب بجذورها منذ القدم وتعد مصر الأسبق إليها عبر التاريخ حيث يرجعها البعض للحضارة الفرعونية وإن شاعت في العصور الإسلامية لاحقاً..
ويتخذ "الكعك" مسميات عدة بالأقطار العربية منها: "المعمول" في الشام ودول الخليج العربي فيما تتخذ البحرين اسماً مميزاً له "خَنْفَروش أو خَمْفَروش" ويتميز بإضافات خاصة كالزعفران والهيل وماء الورد، وفي العراق وبعض الدول الأخرى "الكليجا أو الكليجة أو الكُلَيجة"، وقد جاء على ذكر هذا المسمى الرحالة الشهير "أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱللَّوَاتِيّ ٱلطَّنْجِيّ المعروف بابْنِ بَطُّوطَةَ نسبة لأمه" في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" حينما جمعه اللقاء بأمير خوارزم "قطلودمور (تعني الحديد المبارك".. فيما يسميه أهل اليمن "السبابة أو الصحن" فيما يطلق عليه أهل فلسطين والأردن "قرشلة" بزيادة في اللبن..
وقد تسللت عادة ارتباط صناعة الكعك بعيد الفطر للميراث الشعبي فأصبح "الكعك" لصيقاً بتشبيهات تطلقها ألسنتهم في مواقف شتى من حياتهم ومناسبات تستحضرها، فيقولون في المثل الدارج: "بعد العيد ما يتفتلش كحك" وبلهجة أهل الشام "بعد العيد ما ينفت كعك" في إشارة لضرورة تأدية الأعمال في أوقاتها المناسبة وعدم تخطيها ويقولون أيضاً: "الكعك بدون سكر، يخلي المزاج متعكر" أو "كعك بلا سكر يخلي المخفر فاضي بلا عسكر" في تأكيد على ضرورة إتقان الصنعة وخروجها على الوجه الأكمل ويقولون في المثل الشهير: "الكعكة في يد اليتيم عجبة" في استنكار لاستكثار الناس النعمة والهبة التي تلحق بالفقير بإرادة ودون إرادة منه.. ويقولون أيضاً: "اللي بيعمل الكعك شحات" ذلك أنه مهما بلغت كميات الكعك المعدة بالبيت من الكثرة لا يتبقى منها

سوى النذر اليسير لأصحابه حيث يخرج جله في العادة في شكل هبات وهدايا ومبارزات تحدي حول الطعم والرائحة بين الجيران والأقارب وقد تعوض الأسر ما أنفقته من هدايا الكعك بما تستقبله في المقابل من كعك من أسر أخرى لكنه أحياناً ما يكون دون المستوى والمأمول، ولا أجد تمثيلاً لهذه الحالة من قول الشاعر الكبير بيرم التونسي: "يقـــول ابن البلد يعني المهلهل.. أنا والكعك معمول لي قضية.. بفضل الله طلع كعك السنة ديه.. بدون أحزان أو حادثة ردية.. فلا الطحان حط لنا النخالة.. ولا السمان باع السمن ليه.. ولا الفران للعجنة حرقها.. ولا منها انسرق حتى وقية.. تلاتين صاج من صنف النواعم.. تكفي للسنة السودا اللي جاية.. وفاح البيت من شمخة عظيمة.. على الصايمين والفاطرين هنية.. شوية قال، وجاينا الهدايا.. من الجيران داخلة بالصينية.. صينية خالتك أم أحمد حنيفة.. وصحن الست أسما الفهلوية.. وانجر من طرف بدرية هانم.. مغطى بالقطيفة العثمانية.. وفـ الجيران مكاره عجوزه.. دي أهدت كعكها كلو إليه.. وخشت بيه في طشت غسيل.. وقالت هدية والنبي قِبـل الهدية.. ومن أهداك ولو بالخبز يابس.. ترد بالمثل وزيادة شوية.. تلاتين صاج من الكعك المكلف.. يباتوا في بيوت الحتوجية.. ويفضـل كعكهم قدام عنينا.. مشكل زي صدقات التكية.. حنيفة كعكها معجون بديزل.. زناخته للسماوات العلية.. وفاطمة كعكها أسود منقوش.. يبان للعين أفاعي ملتوية.. وأما كعك خالتنا العجوزة.. تروح بيه القرافة مستحية.. أنا نادر إذا خلاني ربي.. ونجا الناس من نيابـــه قوية.. لأعجن كعك بـ (رده) فراخنا.. وأحط عليه شطــة مغربية.. ومن أهـدى إلينا أو رازانا.. نجـــازي الرزية بالرزيـــة."

يصنع الكعك من الدقيق والزبدة أو السمن واللبن، وعادة ما يحشى بالتمر أو الملبن أو المكسرات والزبيب، ويغطى بالسمسم ويرش بالسكر، فيما يدخل في صناعة البسكويت البرتقال والبيض وجوز الهند، لتكسبه الطعم والرائحة المميزتين له.. طبيعي أننا بهذه المكونات على أعتاب وجبة غذائية غنية بالفيتامينات والعناصر الهامة، لكنّها في الوقت ذاته مرتفعة السعرات الحرارية بشكل مخيف تبعاً لمحتوياتها..

الآفة في أي شيء تكمن في تخطي الاعتدال القويم إلى الإسراف الزائد مما يبدل المزايا إلى عيوب ويزيد من المخاطر الصحية.. لذلك دائماً ما أقول: "في الاعتدال حياة. "

من فوائد كعك العيد اشتمال مكوناته كاللبن على الكالسيوم مما يسهم في تقوية العظام والأسنان كما تحتاجه وظائف القلب والعضلات والأعصاب لكن ثمة خطورة في الكميات الزائدة منه حيث تتزايد الشكوك معها حول احتمالية الإصابة بالنوبات القلبية وسرطان البروستاتا.. وكذلك الحديد بدقيق القمح الكامل والذي يسهم في علاج الأنيميا لدوره المحوري في تكون هيموجلوبين كرات الدم الحمراء والزيادة منه تؤدي إلى تصبغ الجلد باللون البرونزي والتهاب البنكرياس والسكري، وتضخم وتليف الكبد وقصور الغدة الدرقية..

فضلاً عن البروتين والأحماض الأمينية الأساسية والأوميجا ٣ بالمكسرات المضافة للكعك مما يفيد صحة القلب والشرايين ويقلل مستويات الكوليسترول غير الصحي، لكن الإفراط بها يؤدي لزيادة الوزن لارتفاع السعرات الحرارية بها والانتفاخات وارتفاع مستوى السكر، وقد تؤدي للتسمم الغذائي بمادة الأفلاتوكسين المتواجدة بالمكسرات النيئة مثل الجوز البرازيلي وبحمض الهيدروسيانيك في الكميات الزائدة من اللوز.

علاوة على الفيتامينات بمكونات الكعك الأخرى وعلى رأسها فيتامين أ (ريتينول، حمض ريتينويك) المتواجد في صفار البيض والألبان بخصائصه المضادة للأكسدة فيقي الخلايا ويساعد على الذاكرة القوية وزيادة التركيز حيث يؤثر على نشاط خلايا المخ في المناطق المرتبطة بالتعلم والذاكرة ومهم للرؤية ويعزز المناعة، لكن الزيادة فيه تؤدي للأضرار بالكبد والتساقط الجزئي للشعر بما فيه الحاجبان وكذلك الخشونة وتشقق الشفاة.

وفيتامين ب المركب (يتضمن فيتامين ب1 "الثيامين"- فيتامين ب2 "الرايبوفلافين"- فيتامين ب3 "النياسين"- فيتامين ب5 "حمض البانتوثنيك"- فيتامين ب6 "البيريدوكسين"- فيتامين ب 7" البيوتين"- فيتامين ب9 "حمض الفوليك-"- فيتامين ب12 "موجود في الخميرة ويسمى الكوبالامين"). وشبيهه "الكولين" في منتجات الحليب والبيض مما يساعد على تقوية الأعصاب ونقل المعلومات بين خلايا المخ وتحسين الذاكرة ورفع الحالة المزاجية. لكن في المقابل الزيادة منه تؤدي إلى الطفح الجلدي والاحمرار والهبات الساخنة وضبابية الرؤية..

إذاً نحن في منعطف جذري حاسم ما بين الفوائد الكثيرة المميزة لهذه المكونات وغيرها وأضرارها الجمة على الجانب الآخر.. ناهيكم أنّ الكعك يحتوي على دهون مشبعة بحكم كونه مصنعاً من السمن البلدي أو الصناعي، لذا فالإفراط فيه

يؤدي لمشاكل السمنة وارتفاع الكوليسترول والدهون الثلاثية وتراكمها على جدران الشرايين مما يؤدي لتصلبها ويضر بمرضى الضغط والقلب بطبيعة الحال.

كما أن إضافة السكر إليه والمتواجد أيضاً بالزبيب يضر بشدة مرضى السكري علاوة على أنّ السمسم به قد يؤدي لضيق التنفس والقيء والغثيان ويفاقم أعراض مرضى النقرس، كما قد ينتج عنه انخفاض مستوى السكر بالدم وضغط الدم لذا ينبغي الحرص الشديد.

ويعد الأطفال الأكثر خطراً في قوائم أضرار كعك العيد، حيث يؤدي الإفراط في تناوله نتيجة لحب الأطفال للحلوى بشكل عام إلى مشاكل عسر الهضم والإسهال ومرض السكري، وكذلك الحال في شرائح كبار السن لتفادي اضطرابات الهضم لديهم وتقليل مغبة تفاقم أعراض الأمراض المزمنة لديهم ما ظهر منها وما بطن.

وهل يمكن أن نغادر مبحثنا دون أن نبحث ونغوص في أرشيف الصحافة المصرية الذي صار الإدمان بالنسبة لي؟ بالتأكيد لا.. وسوف نتوقف عند السمنة والتي تمثل التحدي الكبير لدى الشعوب العربية والمصريون بالأخص مما يتسبب في تزايد تبعاتها من أمراض مزمنة كثيرة ومتنوعة ولعلّ أظرف ما جاء عنها في أرشيف الصحافة المصرية ما رصدته صحيفة "الأهرام" في العدد 19186 في 10 فبراير 1938م، والذي صادف مناسبات عدة منها عيد الأضحى (العدد بتاريخ 9 ذي الحجة) والذكرى الثلاثون لوفاة مؤسس الحركة الوطنية "مصطفى كامل باشا" والذي تصدرت صورته الصفحة الأولى ومقال عنه بقلم الأستاذ "عبد الرحمن الرافعي بيك" كما يواكب ذكرى ميلاد الملك "فاروق" (11 فبراير 1920م) وجاء بعد عشرين يوماً تقريباً من زفاف الملك "فاروق" على الملكة "فريدة " (20 يناير 1938م).

تحت عنوان "ما قل ودل" روت الصحيفة عن سيدة أجنبية من أرقى الطبقات كانت في زيارة لمصر وحدث أن قصدت "فلسطين" وفي القطار المتجه إلى هناك جمعتها المصادفة برجل مصري وزوجته وولديهما وراح الرجل يبرز أمامها ثقافته ويستعرض درجة إتقانه للغة الإنكليزية كمتكلميها سواء بسواء فيما تحدثت الزوجة اللغة الفرنسية بطلاقة شديدة..

ما أثار استياء الزائرة الأجنبية وكان محور توقفها واعتراضها هو سمنة الزوجة الواضحة والتي جعلتها تبدو وكأنها في الخامسة والستين من عمرها بالمخالفة

للحقيقة وهي في ريعان شبابها وأن الزائرة الأجنبية ظنت للوهلة الأولى أنها أم الرجل المصري وليست زوجته، مما تطلب أن تسألها! ومن هنا جاءت دعوة الزائرة الأجنبية والتي تنقلها الصحيفة من أن تغير المرأة المصرية من طباعها في السماح لنفسها بالأكل والنوم، ثم النوم والأكل دون حساب ولا نظام ولا قيد ولا شرط، وأنّ ذنبها في ذلك لا يغتفر فهي تسيء لنفسها وزوجها وأولادها جميعاً مطالبة بمحاربة الترهل في النساء المصريات.

ومع إطلالة بسيطة على عالم السينما في مصر في أجواء العيد وهنا ثلاثة أعياد (الزفاف الملكي وعيد الميلاد الملكي وعيد الأضحى المبارك) ومن الصحيفة ذاتها جاء عرض فيلم "يحيا الحب" إخراج "محمد كريم" وبطولة "محمد عبد الوهاب" و"ليلى مراد" بسينمات (رويال القاهرة - الكوزموجراف الإسكندرية - ماجستيك بورسعيد -ركس الأهلي المنصورة).. وفي سينما ديانا جاء عرض فيلم "الملكة فيكتوريا" "المرأة النارية التي أصبحت على أعظم دولة.. ولكنّها كانت سيدة لقلبها" بحسب الإعلان.. وهو من إنتاج شركة "اركو راديو" وبالألوان الطبيعية وتضمن البرنامج عرض شريط وثائقي عن حياة مصطفى كمال ونهضة تركيا الحديثة من صنع (مارش أوف تايم) علاوة على أحدث شريط من الرسوم المتحركة لوالت ديزني.

السؤال التاسع

في كتابي "رواق القصص الرمضاني" و"على مقهى الأربعين" حملت المؤلف مسؤولية ضياع مصنفاته وفقد إرثه الثقافي.. أليس في ذلك تجنٍ؟!

بطبيعة الحال ليست المسؤولية بالكلية على الكاتب، ولكنّه يتحمل شطراً أكبر من المسؤولية لو لم يستثمر كل أدوات عصره في الحفظ والانتشار لمنجزه الثقافي ومنتجه الفكري.
وسأعطي لك مثالاً بالزعيم "سعد زغلول باشا" وهو بحسب ترجمته في كتاب "دليل مصر لعامي 1889م-1890م" تأليف "يوسف آصاف" فله كتاب في علم الأخلاق هو "أغرب الوسائل لكسب الفضائل" والكتاب مفقود بشكل تام ومجهول حتى عن ذوي قربته، فقد كتب "مصطفى أمين" وقد تربى في بيت سعد أنه لم يسمع عن هذا الكتاب شيئاً ورصد مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يعثر على نسخة منه لإعادة طباعته بوصفه كتاب نادر للزعيم.. لكن الواضح أنّ الكتاب اندثر بالكلية لإهمال صاحبه شأنه، وقد كان في أوج الشهرة ويستطيع إعادة طبعه لمرات عدة، ولكن الجلي أنّه لم يفعل أو لم يشأ أن يفعل، وأخمن أنه لو صحت نسبة هذا الكتاب للزعيم الذي لم يعرف عنه غرامه بتصنيف مؤلفات له، فلربما كانت محاولة غير ناضجة لمنافسة شقيقه الأصغر "أحمد فتحي زغلول" صاحب المنجزات الزاخرة والقيمة في ميادين الترجمة والقانون.. طبعاً الكفة ستميل باتجاه الشقيق لا محالة.. والغبطة لا الحسد من طبائع البشر.. وإدراك إمكانيات المغتبط مبكراً خاصة إن كان من أصحاب الصنائع، متمكناً منها.. والانسحاب من السباق معه لميادين أكثر رحابة من حميد الفطن...

السؤال العاشر

تحدثت في كتابي "نزهة الألباء في مطارحات القراء" و"منافح الأيك في مساجلات النخب" عن قضايا الطلاق والزواج العرفي في الماضي فهل لك أن تحدثنا عن قضايا الخلع في الماضي وما الفرق بينه وبين الطلاق للضرر؟! وعن قضايا طريفة لتعدد الزوجات مثل الرجل الذي تزوج بأربعين امرأة وتعدد الأزواج أيضاً؟!

يسعدني جدّاً أن أضيف حوادث جديدة سعياً للعظة والاعتبار، وليس القصد محاسبة الأشخاص كما اتفقنا دوماً.

أولاً قضايا الخلع:

ظنّ الكثيرون أنّ قضايا الخلع أخذت طريقها بعد التعديلات التي جرت في عهد الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك على قوانين الأحوال الشخصية وإقرار حق المرأة في "الخلع".

....

وكانت أول قضية خلع تشهدها المحاكم المصرية قد أقامتها "وفاء مسعد جبر" فلاحة أمية من "سجين الكوم" إحدى قرى مركز قطور" التابع لمحافظة الغربية ضد زوجها "السيد محمد إبراهيم" صاحب معمل أسنان في 29 يناير عام 2000 م أمام محكمة الأحوال الشخصية بطنطا والسبب المعاملة القاسية وهجران زوجها لها وزواجه بأخرى بعد زواج استمر 14 عاماً وفي أول جلسة تم التصالح بين الزوجين المصدر كتاب (الخلع بين الإسلام والمسيحية لمحمود فوزي).

أما الحكم الأول بعد صدور قانون الخلع، فقد أصدرته محكمة القاهرة للأحوال الشخصية لصالح "عزيزة محمد بهاء الدين" ضد زوجها "أبي النصر شرف"، في أول سبتمبر عام 2000 م حيث منحت المحكمة في البداية فرصة ثلاثة أشهر للصلح لكنّ الزوجة أصرت على الخلع بعد أن صارت الحياة مع زوجها مستحيلة بعد زواج دام اثنتي عشرة سنة، وأثمر عن أربعة أطفال مع تنازلها عن كافة حقوقها المالية، ورد كل ما حصلت عليه منه (المصدر البيان الإماراتية 11 سبتمبر 2000 م). وقد ثبت الخلع في الشريعة الإسلامية من الكتاب والسنة..
يقول تعالى في سورة البقرة: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)).
وفي السنة عن عبد الله بن عباس: أنَّ امرأةَ ثابتِ بنِ قيسٍ (جميلةُ بنتُ أُبَيِّ ابنِ سَلُولَ) أتتِ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَت: يا رسولَ اللَّهِ! ثابتُ بنُ قيسٍ، أما إنِّي ما أعيبُ عليهِ في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولَكِنِّي أكْرَهُ الكُفرَ في الإسلامِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: أترِدِّينَ عليهِ حديقتَهُ؟ قالَت: نعَم قالَ رسولُ اللَّهِ: اقبَلِ الحديقةَ وطلِّقها تَطليقةً.
وبذلك "الخُلْع" فقهياً هو "الطلاق على مال أو عوض" ويسمى "فداء" وهو يرد للزوج للمفارقة.
وهل يصلح أن نتحدث في مبحث كهذا ونريد طرح أمثلة من الماضي دون أن نمر بأصدقائنا "المماليك" ونتوقف هنا عند واقعة حدثت في زمن الأمير "يوسف بيك الكبير" وهو من أمراء "محمد بيك أبو الذهب" وزوج أخته، وقد تقلّد إمارة الحج وكان يحمل كراهية شديدة واحتقاراً للمشايخ والفقهاء قيل إنّ السبب فيها ما فعله الشيخ "أحمد صادومة" الكهل المشعوذ بإحدى جواري أو محظيات الأمير بأن كتب على فرجها حجاباً أو تعويذة وقد جاءته متخفية (انظر المجموعة القصصية "في فلك الحكايات") فلما رأى الأمير الحجاب في موضع العفة من الجارية اشتدّ غضبه واعتبر ما فعله الشيخ اعتداء على عرضه، فأمر بقتله وإلقاء جثته في النيل، ومن وقتها وهو يعرض على زواره تمثالاً من القطيفة على هيئة العضو الذكري، وجد ببيت الشيخ "صادومة" معلقاً في سخرية وتعريض بالمشايخ بقوله: "انظروا أفاعيل المشايخ".

الحادثة التي نحن بصددها- ومصدرها تاريخ الجبرتي- نتعرف فيها الفرق بين الطلاق للضرر والخلع.. تتلخص الواقعة أنّ الشيخ "عبد الباقي ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي" قد طلق ابنة أخيه من زوجها "علي" مستعيناً بالشيخ "حسن الجداوي" مالكي المذهب، وذلك لأن الزوج دائم الغياب عنها لسفره، وينفرد المذهب المالكي بأن استدامة الوطء حقٌ مطلقٌ للزوجة، بينما ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أن حق المرأة في الوطء ينقضي في المرة الواحدة ودوامه قضاء حق للرجل فقط، وليس المرأة، وعليه فطبقاً للمذهب المالكي فالرجل إذا غاب عن زوجته مدة (6 أشهر عند الحنابلة وسنة فأكثر عند المالكية)، كان لها طلب التفريق منه، سواء أكان سفره هذا لعذر أم لغير عذر، لأن حقها في الوطء واجب.. والطلاق في هذه الحالة لا يتطلب رد المهر، وهذا الفرق بينه وبين الخلع الذي يتطلب رد المهر كله أو جزءاً منه حسب التراضي بين الطرفين..

نعود للحادثة.. ما إن عاد الزوج من تجارة له بالفيوم حتى وجد زوجته قد طلقت منه دون إرادته وتزوجت بآخر! طبعاً أصيب الزوج بالذهول وكان محقاً، فذهب للأمير "يوسف" شاكياً فشاركه غضبته هو الآخر، وأمر بالقبض على الشيخ "عبد الباقي" وتكبيله بالحديد والزج به في السجن مع أرباب السوابق.. فعظم ذلك على العلماء فتجمعوا وذهبوا من فورهم للأمير يتقدمهم الشيخ "علي الصعيدي العروسي العدوي" فاضطر الأمير إلى الإفراج عن الشيخ المحبوس وتعالى السباب بين الطرفين إلى حد أن قال الشيخ "علي الصعيدي" للأمير: "لعنك الله ولعن اليسرجي (تاجر الرقيق) الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً".. وللشيخ "علي الصعيدي" مكانة كبيرة في أوساط أمراء المماليك منذ زمن "علي بيك الكبير" والذي كان لا يدخن أمامه احتراماً لمكانته وتوقيراً له، وقد عرف عن الشيخ عدم حبه لشرب الدخان وانتقلت هذه المكانة لمحمد بيك أبو الذهب.

طبعاً الواقعة التي استعرضناها ليست خلعاً، وسردنا القصد منها وهو أن نبرز صورة من صور حق المرأة وذويها في الحصول على الطلاق للضرر، وانفتاح العلماء في ذلك الوقت لقبول ذلك وتفعيله والدفاع عنه.

ولقد شهدت مصر في ظل وجود المحاكم الشرعية قضايا خلع عديدة..

المثال الأول: من أغرب ما صادفته في أوراق تاريخية لدى بعض باعة الورق التاريخي (على سبيل الاستئناس).. شهادة قيد على يد المأذون "نمرة 11 أورنيك 14 محاكم شرعية" تحمل مفاجأة من العيار الثقيل (لو صحت) وهي

"مخالعة" الست "نظيمة هانم" كريمة المرحوم "عباس باشا يكن" ابن المرحوم "أحمد الثابت" من زوجها دولة الأمير "محمد داود باشا" ابن المرحوم "محمد إسماعيل بيك" ابن المرحوم "محمد علي باشا الصغير" ابن "محمد علي باشا الكبير" وذلك أمام المأذون "أحمد إبراهيم" بقسم السيدة زينب محل سكن البرنس والتابع لمحكمة مصر الشرعية الكبرى، وذلك في 12 ذو القعدة 1328 هجرية (الموافق 14 نوفمبر 1910م) على جميع صداقها المقدر بثلاثمائة جنيه أفرنكي.. الطريف أنّ الخلع جاء بعد مدة قصيرة من زواجهما في 20 ربيع الثاني 1328 هجرية (الموافق أول مايو 1910م) على يد المأذون الشيخ "محمد المهدي" والأطرف أنّ الخلع لم يدم طويلاً أيضاً حيث عادت السيدة "نظيمة هانم" إلى عصمة البرنس "محمد داود" مرة أخرى بعقد زواج جديد بتاريخ 26 ذو الحجة 1328هجرية (27 ديسمبر 1910 م تقريباً)..

المصاهرات بين أسرة "يكن" والأسرة العلوية وطيدة، بل إننا لو أردنا الحقيقة فهما في الأساس أسرة واحدة ذلك أن "يكن" بالتركية تعني "ابن الأخت" في إشارة لتفرع الأسرة من أخت محمد علي باشا الكبير (وقيل من أولاد شقيق زوجته الأولى أمينة هانم) وقد كان "عباس يكن باشا" صهراً لمحمد علي باشا الكبير، وقد أهداه الأخير عام 1811م جزيرة الروضة، وكانت وقتئذ أرضاً زراعية والوصول إليها بالقوارب.

اللافت والذي أثار استغرابي ما جاء في كتاب "أبو جلدة وآخرون" لتوفيق حبيب من أن زوجة "محمد داود باشا" هي "سنية منصور" كريمة المرحوم "منصور يكن باشا " وكبرى بناته (يسمى باسمه الشارع المشهور الذي تخترقه سكة حديد حلوان من محطة باب اللوق إلى ما بعد محطة السيدة زينب ووقع فيه محاولة اغتيال الشيخ محمد مصطفى المراغي.. راجع كتاب (تاريخ حائر بين بان وآن) وأمها البرنسيسة "توحيدة هانم" الابنة الأثيرة للخديوي "إسماعيل" من زوجته "شهرت فزا هانم" وشقيقة الأميرة "فاطمة إسماعيل" وكان زفاف "سنية هانم" هو الأكبر منذ أفراح الأنجال (تحدثنا عنه في كتاب "رواق القصص الرمضاني") حيث بلغت تكلفته ثلاثين ألف جنيه، وأثمرت الزيجة عن إسماعيل داود ومنصور داود وسعيد داود وسليمان داود..

الحقيقة أن ما ورد في هذا الكتاب ومصادر أخرى أربكني، فهل كان للأمير زوجتان في التوقيت نفسه أم انفصل عن "نظيمة هانم" بشكل تام أم توفيت في حياته أم أنّ الورقة التاريخية غير دقيقة؟! الإجابة عن هذه الأسئلة قد تحملها

بعض الأوراق القانونية الخاصة بوقف "نظيمة عباس يكن" بناحية شبرا قبالة مركز السنبلاوين مديرية الدقهلية بموجب حجة شرعية صادرة من محكمة مصر الشرعية في 25 مايو 1911م وذلك للانتفاع من الوقف مدة حياتها (توفيت في 13 مارس 1956م) ثم ينتقل لأولادها وهنا مربط الفرس، والدليل على أنّ الزواج لم يستمر وأنّها تزوجت آخر من عائلتها "يكن" فأولادها ("عباس شكري يكن" مات في حياتها وكان عقيماً، و"إبراهيم نجيب يكن الشهير بصالح"، و"محمد حلمي يكن"، و"أحمد زكي يكن"، وابنتها "نازلي يكن" والتي أنجبت ابنة واحدة هي "شهرزاد حسين"). لكن ما هي أسباب الخلع والانفصال لعدة مرات فهي أسئلة لم أعثر لها على إجابة وأنا في طور الإعداد لهذا المبحث.

نأتي لذكر الأمير "محمد داود باشا" والذي انضم لصفوف الحركة الوطنية مما أغضب الملك "فؤاد" لكن حينما توفي وكان الملك "فؤاد" في رحلة بالوجه القبلي وجه أن تكون الجنازة رسمية ويشارك فيها الجيش والمدفعية والموسيقى..

المثال الثاني: ما جرى من طلاق بالمخالعة في 16 يوليه 1908م (أورنيك نمرة 14 محاكم شرعية "قيد إشهادات الطلاقات" الصادرة على يد المأذون "حسنين السديسي" نورده على سبيل الاستئناس) بين الدكتور"عبد الله جودت بيك" حكيم العيون ابن المرحوم "عمر وصفي أفندي بن مصطفى أفندي" القاطن بشارع الموسكي وزوجته الست "عفت هانم" بنت المرحوم "عابدين بيك بن أعيان آغا أفندي" القاطنة بقسم الجمالية على مؤخر صداقها البالغ مائة وواحد جنيه عثماني ونفقة عدتها، والطريف أنّ زواجهما الأول كان قبل المخالعة بعام تقريباً على يد مأذون جزيرة جريد (كريت) الشيخ "سيد محمد جيلاني". وبعد المخالعة بأمدٍ قصيرٍ لا يتجاوز ثلاثة شهور عادا للزواج مرة أخرى حيث وقعت المخالعة في 17 جماد الثاني وتراجعا في 4 رمضان من نفس العام.

لكن من هو "عبد الله جودت بيك" المذكور في هذه الورقة التاريخية؟! وما سبب وجوده بمصر؟ القصة بدأت من اجتماع مجموعة من طلبة مدرسة الطب العسكرية في إسطنبول، وهم: "إبراهيم تيمو" وصاحبنا "عبد الله جودت" و"إسحاق سوكوتي" و"محمد رشيد" على تكوين "جمعية الاتحاد العثماني" عام 1889م أو جمعية الاتحاد والترقي فيما بعد وكان نشاطهم منحصراً في قراءة الصحف والأعمال الأدبية المعارضة لشكل الدولة العثمانية والداعية لإحداث

إعادة هيكلة كاملة داخلها بشكل حديث بما يحقق مبادئ الديموقراطية واحترام الدستور أسوة بالنظم الغربية..

بدأت أفكار الاتحاد وأصحابه الاتحاديون تنتشر بين طلاب المدارس العليا الأخرى فتحول إلى تنظيم سري على شاكلة المحافل الماسونية المنتشرة في كل أرجاء العالم آنذاك.. ومع كثرة من انضم من الأعضاء إلى الاتحاد بدأ ينتهج فكراً قومياً علمانياً بعيداً عن إصلاح الدولة العثمانية الجامعة للمسلمين بشكلها الحالي، خاصة بعد الاندماج مع "جمعية الحرية العثمانية" عام 1907م ومقرها "سالونيك"..

حاول التنظيم الانقلاب العسكري على السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني" عام 1896م لكن المحاولة باءت بالفشل، وفقد التنظيم مواقعه داخل إسطنبول حيث قبض على بعض أفراده وتم نفي البعض وبدأ يحاول تكوين قواعد بديلة له في الخارج ومنها مصر..

كان "عبد الله جود" ممن تأثروا من الجمعية بالفلسفة المادية الغربية الحداثية وهجروا الدين ودعوا للعلمانية وعملوا على نشرها.. وقد كانت مصر كما يتضح من الورقة التاريخية وإقامة عبد الله جودت بها من محطات التنظيم في فترة معينة.. وقد أنشأ مجلة "الاجتهاد" في مصر لتكون منبراً معبراً عنه وعن آرائه.

وقيل إنّه وإن كان يدعو للإلحاد لكنه كان يبدي احتراماً وتقديراً للمشايخ أصحاب الفكر الإسلامي الإصلاحي مثل الشيخ "محمد عبده" والشيخ "محمد رشيد رضا" وقد روى الأخير عنه عرضه بالتبرع بالتدريس بالمدرسة الكلية الإسلامية حال النجاح في تأسيسها دروسه الصحية والعلمية وفق منهجهم في الإصلاح الديني.

في عام 1908 م استطاعت الكتائب المسلحة التابعة للجمعية والتنظيم قيادة حركة تمرد في مقدونيا ضد السلطان، آزرتها فصائل مسلحة من ألبانيا.. أرسل السلطان "عبد الحميد"، "شمسي باشا"، لقمع التمرد، ولكنه قتل وبدأ العصيان يتضخم من حول سلطة السلطان ولابد من المفاوضة والملاينة وانصاع السلطان وأعاد الدستور والعمل البرلماني وسمح للجمعية بالعودة لإسطنبول ومباشرة عملها السياسي من هناك.. وقد حقق "الاتحاديون" فوزاً كبيراً مستحقاً في الانتخابات البرلمانية مما جعلهم يحدون من سلطة السلطان "عبد الحميد" عدوهم السابق.. فحاول الداعمون للسلطان من وحدات الحرس السلطاني ومن جماعة "الأحرار" والعلماء المسلمين الانقلاب عام

1909م لإعادة السلطان لسابق عهده من الصلاحيات المطلقة وتجميد العمل بالدستور وتطبيق الشريعة الإسلامية.. لكنْ "الاتحاديون" لم يكونوا باللقمة السائغة هذه المرة إذ أجهضوا هذه المحاولات سريعاً بانقلاب عسكري مضاد وحاسم ومباغت شنه الجيش السلطاني الثالث من مقدونيا بقيادة الفريق "محمد شوكت" ووصل إلى إسطنبول وحوصر السلطان "عبد الحميد الثاني" وتم عزله في 27 أبريل 1909 م ونفي إلى "سالونيك"، واعتلى شقيقه محمد رشاد (محمد الخامس) أريكة الحكم بدلاً منه.

الغريب أن "عبد الله جودت" لم يشارك رفقاء الأمس حلمهم وانفصل عن جمعية الاتحاد والترقي وانضم عام 1908 م للحزب العثماني الديمقراطي المناهض للجمعية!

توفي "عبد الله جودت" وحيداً في 29 نوفمبر 1932م وقد شهدت وفاته أحداثاً محزنة فلم يتقدم أحد لتكفين جثمانه في مسجد "آيا صوفيا" كما شهدت الصلاة عليه خلافاً حيث رفض المتدينون الصلاة عليه والسبب معروف بالتأكيد! وهي من الخواتيم المحزنة والمؤسفة ومسؤول عنها صاحبها في المقام الأول الذي ارتضى عن منهاج ربه بديلاً..

وهنا أتوقف عند نقطة شديدة الأهمية ومن أهم عبر ودروس التاريخ على المستوى الشخصي وهي "حسن الخاتمة" والتضرع لله أن نكون ممن يرزقهم الله وينعم عليهم بها وأسوأ ما وجدته من هذه الخواتيم ما جاء في تاريخ الجبرتي عن موت الأمير "مصطفى بيك دالي باشا" كاشف الشرقية "وكان جسيماً بطيناً يأكل التيس المخصي وحده، ويشرب عليه الزق من الشراب، ثم يتبعه بشالية أو اثنتين من اللبن، ويستلقي نائماً مثل العجل العظيم ذي الخوار "ولأن موته كان بالإسكندرية فقد أمرت أخته "التي هي زوج الباشا" ووالدته بإحضار "رمته" وذلك بحسب وصف "الجبرتي" إلى مصر وأن يدفن بمدافن العائلة، فحمل في صندوق على عربة واستغرق نقله اثني عشر يوماً.. فلما أرادوا إنزاله بالصندوق لقبره استعصى الأمر، ففتحوا الصندوق ففاحت رائحته الكريهة، وكان قد تعفن ففر كل من كان حاضراً ووضعوه في حصيرعلى عجل ووضعوه في قبره "وغشي على الفحارين وخزعت النفوس من رائحة أخشاب الصندوق فحثوا عليه الأتربة وليس من يفتكر ويعتبر".. والحق كل الحق ما قاله "الجبرتي" فهل هناك من ينفق من وقته قليلاً ليفكر ويعتبر؟!

نعود لموضوعنا مرة أخرى ودعونا نتفق أن "الخلع" وقبول الزوج له بمقابل أو بدون مع تراضي الطرفين بذلك هو من المظاهر الحضارية التي تعكس ثقافة العصر ورقيه شريطة التعقل في أسبابه ومع ذلك نجد من بين أوراق "قيد إشهادات الطلاق" على يد مأذون نماذج من الطلاق (على سبيل الاستئناس) كان يجري فيها الاتفاق على استرجاع بعض هدايا الزوج لزوجته أو التوافق على تركها لديها واسترجاعها وقتما يشاء ومن ذلك طلاق "يوسف بيك رسمي بن عبد الله (تركي الأصل وهو جد الملكة فريدة "صافيناز ذو الفقار" وعميد أسرة "ذو الفقار" نسبة لسيفه وقد تعهده "محمد علي باشا" بالرعاية والتنشئة العسكرية وقاد كتائب الجيش المصري في حربي الحبشة وروسيا)" من أرباب المعاشات بالروزنامجة والقاطن بشارع "الصنافيري" بباب اللوق بقسم عابدين في 18 نوفمبر 1893م من زوجته الست "نجيبة" بنت المرحوم "شافعي بن عبد الله" طلاقاً ثلاثاً فصارت بائنة بينونة كبرى لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، وتضمنت هذه الورقة التاريخية التي نسردها على سبيل الاستئناس بياناً بما لديها وبطرفها من متعلقات له يطالبها بها بإرادته ووقتما يشاء وهي على النحو التالي: (حلق الماس بمبلغ واحد وعشرين جنيه إنكليزي- زوج أساور ذهب بندقي عيار 40 بمبلغ عشرين جنيه إنكليزي - دبوس ثلاث غوازي بمبلغ اثنين جنيه إنكليزي -حزام فضة بمبلغ خمسة جنيهات إنكليزي).

مع تطبيق قانون "الخلع" حديثاً في مصر أفرز غرائب وعجائب في أسباب الطلاق ومنها دعوى خلع أقامتها زوجة ضد زوجها الذي خانها عام 2014 م لأن زوجها يريدها مثل "هيفاء وهبي" و"كيم كاردشيان" "وأنا لست مثل تلك الدمى الصناعية" بحد قولها.. وفي عام 2017 م رفعت سيدة دعوى خلع ضد زوجها البرلماني لتأييده اتفاقية "تيران وصنافير".. بل وفتحت هذه القضايا الطريق أمام الرجل للمطالبة أن يكون له الحق نفسه في رفع دعوى خلع أسوة بالمرأة التي لها حق "الخلع" وحق طلاق نفسها حال العصمة بيدها ومن هذه القضايا قيام رجل أعمال برفع دعوى خلع أمام محكمة الزقازيق للأحوال الشخصية مطالباً برد المهر وقدره "مائة ألف دولار"! بعد زيجة استمرت تسع سنوات لكن المحكمة رفضت دعوى الزوج لأنّ الزوج يملك حق الطلاق ومؤكدة أن دعوى الخلع من حق الزوجة فقط.

وخاتمة هذا المبحث في العظات التي نستخرجها من قوله تعالى في سورة الروم: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)) وقوله تعالى في سورة البقرة : (وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237).

....

ثانياً: تعدد الزوجات

ونسلط الضوء على قضية الطبيب المزيف.. القضية الأغرب في أرشيف الصحافة المصرية والمحزنة أيضاً.. مهنة الطبيب بلا شك لها رونقها وجاذبيتها تفتح الأبواب الموصدة لأصحابها خاصة إن تعلق الأمر بالزواج..

لكن من واجب الأسر أن تتحرى وتسأل حتى لا تقع في المحظور، ولنا في هذه القصة التي سنسردها عظة وعبرة.. في العدد 1409 من مجلة "المصور" في 12 أكتوبر 1951م والرأي العام ملتهب إثر إلغاء معاهدة 1936م وإعلان الكفاح المسلح في منطقة القنال والمصريون يتطوعون من أجل قضية جلاء المستعمر عن أرض مصر.. في هذا الوقت كان "علي حلمي شاكر" في شغل شاغل عن كل هذا، فقد كان في سباق لبلوغ الرقم القياسي في عدد الزيجات من بنات المجتمع الراقي منتحلاً صفة طبيب ومستخدماً ما يقارب من اثنين وعشرين اسماً.. ومن الحوادث التي ترصدها المجلة وتوضح كيف كان يوقع بضحاياه، احتياله على "محمود درويش" من أعيان القاهرة بينما كانا في أحد صالونات الدرجة الثانية بالقطار المغادر من الإسكندرية إلى القاهرة، حيث راح يقص عليه أنه يبحث عن شريكة حياته وشروطه في ذلك أن تكون مثقفة وعلى جانب من الأخلاق العالية.. ظنّ "محمود درويش" أنّه يستطيع أن يسدي لصديق القطار الطبيب المزيف خدمة و"يوفق رأسين في الحلال" كما يقولون.. فاستضافه في منزله وعرضت ابنته على الطبيب صديقة لها من أسرة كبيرة وتنطبق عليها كافة شروطه وتم الزواج، وبعد يومين من الزفاف والدخول بالعروس المسكينة اختفى الطبيب المزيف عن الأنظار وبحوزته مبلغ ثلاثمائة وعشرين جنيه من أموال ابنة مضيفه "محمود درويش" بعد زيارة لها في منزلها.

أسرع "محمود درويش" وكريمته بتقديم بلاغ أمام اليوزباشي "أمين صبور" معاون مباحث الخليفة بالقاهرة (لاحظ هنا أنّ الصحافة قديمة في تلميع صورة البوليس ووضع أسمائهم على القضايا).. أرسل بوليس "الخليفة" نشرة بأوصاف الطبيب المزيف إلى بوليس "الزقازيق" حيث اتضح أن رجلاً بهذا الاسم كان يحترف الطب بلا ترخيص في إحدى القرى التابعة لمديرية الشرقية، ثم نزح إلى "الزقازيق" وانتحل اسم "دكتور فكري" وتزوج من أسرة معروفة هناك، ثم اختفى كعادته بعدها بأسبوع ليتضح لأسرة العروس أنه محتال.. ويبدو أنّ نشاط الطبيب المزيف قد اتسع نطاقه عبر محافظات مصر وشمل الأجانب أيضاً إذ أنه وفي نفس الوقت تقدمت إحدى الفتيات الأجنبيات المقيمات في بورسعيد ببلاغ إلى البوليس من أنها تزوجت من طبيب مصري يدعى الدكتور "علي جلال" وأنه أوهمها بقضاء شهر العسل في أوروبا وذهب لحجز مكانين على الطائرة واختفى ومعه حلي العروس.

وتوالت البلاغات سراعاً من القاهرة ومنها من تاجر تزوج من ابنته باسم الدكتور "إسماعيل خالد" وكان يريد إنهاء إجراءات الزواج في عجالة تحت دعوى أن إحدى الهيئات اشترطت عليه أن يكون متزوجاً حتى تعينه كبيراً لأطباء مستشفاها.. وكعادة الطبيب المزيف في انتهاك الأعراض تحت ستار الزواج ثم سرقة العروس وفي صبيحة يوم الزفاف.. فرّ العريس في ساعة مبكرة ومعه حقيبة بها حلي العروس وملابسها وما تيسر من النقود...

تلى ذلك بلاغ آخر من أرملة التقاها في جمعية "الإسعاف" وكانت تعاني من مرض أصابها فتطوع للكشف عليها في منزلها منتحلاً اسم الدكتور "جمال حلمي" وبعد أن تفحص جسدها بإمعان.. لم يستغرق الأمر ساعات حتى دخلت في عصمته واستمرت الزيجة تسع ساعات بعدها اختفى ومعه مجموعة من الحلي الذهبية.

ثمة بلاغ جديد أضيف إلى ما مضى بطلته فتاة حديثة التخرج من أحد المعاهد حيث تزوجها باسم "الدكتور علي المجبر" وفي صبيحة ليلة الزفاف سرق ما خف حمله وغلا ثمنه من حلي وثياب وأموال في غفلة من أهل البيت..

ومع تعدد الجرائم وكلها بالسيناريو نفسه ولم تسلم منه ثيبات أو أبكار، صغار أو كبار.. بدأ البوليس يسعى بجد للقبض عليه وهو ما حدث.. حيث نما إلى علم معاون مباحث الخليفة اليوزباشي "أمين صبور" أنّ الطبيب المزيف يقيم في منطقة "العباسية" منتحلاً هذه المرة اسم وزي أولاد البلد تحت اسم المعلم

"حسنين علي" المقاول فتم القبض عليه عند إحدى محطات ترام العباسية، حيث وقف ضابط البوليس متظاهراً بمطالعة صحيفة في يده (نفس الحيل في أفلام الأبيض والأسود) بينما يدقق في أوصاف الطبيب المقاول المزيف ثم اقترب منه بهدوء ووضع القيد الحديدي في يد المشتبه به والمحتال لا ينبس ببنت شفة وقد انكشف أمره وأحيط به.

في قسم بوليس "الخليفة" تعرفت زوجاته الضحايا عليه وبتفتيشه عثر في جيبه على مفكرة بها اثنان وعشرين اسماً مستعاراً ورقم قضية اتهم فيها بالنصب والتحايل على طبيب مشهور بالقاهرة باعه منزلاً لا يملكه وتقاضى ثمنه.. طبعاً قبض عليه بعد ذلك وحبس ثلاثة شهور في سجن مصر.. والواضح أنه هيئة الطبيب ومكانته أعجبته واستهوت فؤاده ولهذا وبعد خروجه من السجن مارس مواهبه في النصب والاحتيال مجدداً كما رأينا تحت ستار الطب..

الطريف أن المحتال توعد زوجاته اللاتي لاحقته لعناتهن بطلبهن في بيت الطاعة واحدة تلو أخرى قبل دخول السجن عقاباً لهن على ما وصفه بالمقلب المدبر منهن واتهامه بسرقة أموالهن وحليهن وأن أرباحه من احتراف الطب والبالغة مئتي جنيه شهرياً تجعله في غير حاجة لاقتراف مثل هذه الأفعال.

وبمناسبة اسم الدكتور "علي المجبر" الذي حمله الطبيب المزيف.. فقد وفر علينا العناء في التمهيد لكارثة الكوارث في مصر وظاهرة الفوضى الطبية.. وحتى نقترب من معالم هذه الكارثة.. تعالوا نقرأ معاً في العدد 49 من اللطائف المصورة في 17 يناير 1916م، حيث تصدرت صورة ما نعتته بالشيخ الجليل المعلم "برسوم المجبر" الصفحة الأولى في المجلة ناعية إياه.. وهو صاحب الطريقة البرسومية في جبر العظام وتصليح كسورها ومعالجة المفاصل المخلعة والملتوية والتي توارثها عن أسلافه جيلاً بعد جيل وورثها عن أبيه "إبراهيم خير الله" وأورثها من بعده لنجله "يوسف أفندي برسوم".. وبحسب المجلة فقد ذاع صيته وحلقت شهرته بالآفاق طيلة خمسة عشر عاماً قضاها في هذه المهنة حتى أصبح مقصداً للناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم، وبيته مزدحم عن آخره لا فرق بين غني وفقير، مما رفعه لمكانة كبيرة في كل ربوع مصر حسده عليها كبار الجراحين ممن تخرجوا من مدارس الطب العليا.. كما خلّده الفنان نجيب الريحاني في مشهد شهير في فيلم "سلامة في خير" (إنتاج 1937م) حينما اعتاد أحد الشحاتين المحترفين أن يمد يده بطريقة ملفتة طلباً للصدقة فيقول له

"نجيب الريحاني" وقد انتبه لحيلته: "هو أنت إيدك تملي كده.. أجيب لك برسوم يعدلهالك؟!".

أعطني عقلك.. هل هذا مناخ يمنع النصب والاحتيال؟! والصحافة والأعلام تحتفي بمنتحلي صفة الطب والعلاج! بالتأكيد لا، بل هو مثال صادق على الفوضى الطبية.. فالمجال الصحي قائم على علم واختبارات ودراسات لا تمارس بالإلهام والموهبة..

نتوقف أيضاً هنا عند "بيت الطاعة" الذي هدد به الطبيب المزيف زوجاته المكلومات.. وليس في الإسلام ما يعرف ببيت الطاعة، ولكنه انتقل إلى القانون المصري عام 1929م تأثراً بالقانون الروماني، وأقوال بعض الفقهاء القدامى فمثلاً قال ابن تيمية:

"قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: الزَّوْجُ سَيِّدٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ. وَقَرَأَ قَوْله تَعَالَى: (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ). وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: النِّكَاحُ رِقٌّ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ عِنْدَ مَنْ يُرِقُّ كَرِيمَتَهُ. وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ [يعني: أسيرات]) فَالْمَرْأَةُ عِنْدَ زَوْجِهَا تُشْبِهُ الرَّقِيقَ وَالْأَسِيرَ، فَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ إلَّا بِإِذْنِهِ سَوَاءٌ أَمَرَهَا أَبُوهَا أَوْ أُمُّهَا أَوْ غَيْرُ أَبَوَيْهَا بِاتِّفَاقِ الْأَئِمَّةِ".. من "مجموع الفتاوى" (32/ 263). وقال ابن كثير:

"الرَّجُلُ قَيّم عَلَى الْمَرْأَةِ، أَيْ هُوَ رَئِيسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا اعوجَّت".. من "تفسير ابن كثير" (292/2).

بينما الإسلام الحقيقي لا يعرف علاقة الرجل بالمرأة من منطلق القيد والأسر والعبودية بل من قبيل الرحمة والمودة في الزواج وكذلك في الانفصال.. قال تعالى في سورة الطلاق: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2)).. فضلاً عن منطلق المسؤولية المشتركة للرجل والمرأة داخل الأسرة.. فكلاهما مسؤول وسيد..

روى ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (388) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كُلُّ نَفْسٍ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيِّدٌ ، فَالرَّجُلُ سَيِّدُ أَهْلِهِ، وَالْمَرْأَةُ سَيِّدَةُ بَيْتِهَا) وصححه الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (2041) على شرط مسلم.

والمصطلح الأليق بمكانة المرأة في الإسلام ونص عليه بعض الفقهاء هو "بيت الزوجية".. وشروط بيت الزوجية قيدت بقدرة الزوج غنياً كان أم فقيراً ذلك أن الخطاب للأزواج في قوله تعالى في سورة الطلاق: (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (6)) وفي رواية عن الشافعية أن "بيت الزوجية" بما يليق بحال الزوجة لأنه إمتاع.. والشروط عموماً أن يكون خالياً من أهل الزوج ومن ضرتها وأن يكون بين جيران صالحين تقبل شهادتهم وأن يكون البيت مزوداً بالمرافق الخاصة ومستلزمات الحياة.

وقد صارت القوانين الوضعية على منواله في اشتراطات "بيت الطاعة" حيث نصت مواد القانون رقم 25 لسنة 1929 م المعدل بالقانون رقم 100 لسنة 1985م على حق الرجل في توجيه إنذار الطاعة لزوجته، عند خروجها من منزل الزوجية بغير رضاه مطالباً إياها بالعودة إلى منزل الزوجية والمفترض أن يكون ملائماً للمعيشة وللزوجة أن تعود أو أن تعترض على إنذار الطاعة خلال ثلاثين يوماً وأن تقدم أسباباً وجيهة للاعتراض ومنها مثلاً أن يكون المسكن وهمياً أو غير ملائم أو أن الزوج يعتدي عليها بالسب والضرب ولا ينفق عليها ولابد من أن يكون شهود الزوجة شهود رؤية لا سماع.. وفي حالة عدم تقدم الزوجة خلال المدة القانونية أو الحكم بعدم قبول الاعتراض على إنذار الطاعة تصبح الزوجة "ناشزاً" ومن حق الزوج أن يقيم دعوى "النشوز" لإسقاط نفقتها من تاريخ إنذار الطاعة دون نفقة الأبناء .

ثالثاً: تعدد الأزواج

أجل كما قرأت يا عزيزي.. العنوان يبدو صادماً لكنّه حقيقيّ ففي مجلة "الدنيا المصورة" في 13 يناير 1932م (5 رمضان) نجد حكاية "خضرة" من أهالي "سندنهور" بمركز بنها والتي وعلى الرغم من أنها لم تكمل التاسعة عشرة من عمرها إلا أنها جمعت بين ثلاثة أزواج.. ففي البداية تزوجت رجلاً قريباً من بلدتها يعمل فراشاً في مدرسة "كفر كردي" ثم خرجت من منزل زوجها "جفلانة (بلغة أهل الريف هي التي لا تطيق الإقامة في بيت الزوجية لصغر سنها)" ثم تاقت نفسها لرجل آخر أحبته وتزوجته بشكل رسمي أمام مأذون باعتبارها عذراء لم يسبق لها الزواج ومكثت في كنفه حيناً من الدهر ليس

بالقصير.. لكن سرعان ما سئمت عشرته فهجرته هو الآخر وتطلعت للزواج برجل آخر في القاهرة وبشكل رسمي أيضاً وباعتبار أنها لم تتزوج من قبل قط .

المصادفة وحدها هي التي لعبت الدور الأبرز في كشف الفتاة "المزواجة" إذ رآها أحد زوجيها الماضيين فتتبعها إلى بيت زوجها الثالث وحدثت مشادة حول صاحب الحق فيها ومالك زمامها من أزواجها الثلاثة فيما بقيت الفتاة باهتة لا تدري ماذا تقول؟! وفي المخفر بدأ التحقيق وحاولت الفتاة أمام محكمة جنايات مصر اختلاق أعذار ربما كانت صحيحة من أنّ زوجيها السابقين كانا يكيلان لها صنوف الضرب والعذاب فهربت منهم الواحد تلو الآخر لتحكم المحكمة في النهاية عليها بالحبس عاماً مع الشغل مراعاة لحداثة عمرها.

السؤال الحادي عشر

في كتابك "هوامش على دفتر أحوال مصر" تحدثت عن شهادة أحد الصيادلة عن مكارم "نجيب الغرابلي باشا" وزير الأوقاف ومنها أنه كان مبادراً في أداء ما عليه من حساب للأجزاخانة.. لا أخفيك سراً أني فوجئت بهذا التأصيل لقدم ظاهرة "الشكك" أو "على النوتة" في صيدليات الماضي.. بالتأكيد "ناس زمان" لديهم أخلاقيات أفضل من عصرنا الحالي.. لقد ضاعت مني أموال كثيرة في صيدليتي بسبب هذا "الشكك" وأنت تعرف أن صيدليتي في الريف مثلك و"الأرياف أوقاف" وبدون "الشكك" لا يسير الحال في البيع على ما يرام.. في الآونة الأخيرة اضطررت أن أشرك عمدة القرية في مشكلة مالية مع أحد أهالي القرية الذي أخذ مني أدوية كثيرة على مدار شهرين متعللاً بمرض زوجته وأمه وأبيه وأولاده فرقت نفسي لحاله وكذلك جيبي الذي خرب مع امتناعه عن السداد مماطلاً وهاتفه أصبح مغلقاً من وقتها.. أكل الحقوق أصبح هيناً يا عزيزي على النفوس في زماننا.

هوّن عليك يا أخي وسأعود بك إلى الماضي وهو ليس مثالياً كما اتفقنا كثيراً والحوادث الخاصة بالمماطلة في الدفع على شاكلة ما رويت كثيرة ولا يتسع المقام لرصدها كافة.. لكن سأنتخب لك حادثة طريفة ففي "اللطائف المصورة" في 25 أغسطس 1930م.. جاء خبر اتهام "مصطفى أفندي سعادة" زوج الممثلة "رتيبة رشدي" للدكتور "محمد علوان عبد اللطيف بيك" والصيدلي "ميشيل" صاحب أجزاخانة "الشرق" بأنهما حضرا لمنزله في 12 أغسطس الماضي لمطالبته بدين عليه لهما عن أجرة معالجة وثمن دواء وأنه طلب منهما أن يمهلاه في الدفع فرفضا وأخذا من جيبه عنوة عشرة جنيهات وانتزعا "أزرار" قميصه الذهبية مستشهداً على روايته هذه بزوجته وكريمتها الطفلة "الطاف" .
و"رتيبة" هي شقيقة "إنصاف" و"فاطمة رشدي (الممثلة الشهيرة)" وجدتهم هي "حفيظة هانم" كانت إحدى وصيفات زوجة الخديوي إسماعيل وكانت مهتمة بالروايات الأجنبية والتمثيل المسرحي مما لعب دوراً في وجهات حفيداتها بعد ذلك وكان لإنصاف ورتيبة صالة استعراضية شهيرة..

نعود لظاهرة "الشكك" أو "الآجل" والمعكرة لصفو اقتصاديات الصيدليات في مصر وبالأخص الصيدليات المتوسطة والصغيرة في الريف والحضر.. بعد تخرجي من كلية الصيدلة التحقت بإحدى الصيدليات المتوسطة وكان صاحبها شيخ طيب طاعن في السن وعلى الرغم من أنه قضى جم عمره في الخليج إلا أنه عاد وكأنه شاب يبدأ حياته من الصفر.. فقد كانت أعباء أسرته ومتطلباتها كبيرة وكان يكدح من أجل راحتهم وأن يعيشوا عيشة باذخة أعلى من إمكانياته مضحياً براحته واستقرار نفسه.. ومع ذلك بقي مؤمناً بمبادئه في زحام القيم المادية التي تبحث عن المال، يصارع الحياة من أجل العيش الكريم بعيداً عن شبهات الحرام في مهنتنا وما أكثرها.. فكان يرفض أن يبيع أدوية الكحة والسعال المعلوم أنّ المدمنين يستخدمونها حتى وهي خارج جدول المخدرات.. ولا مسؤولية قانونية عليه في بيعها ولا مضار.. ورغم ذلك بقي متمسكاً بحديث الحسن بن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم: (دعْ ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يُرِيبُكَ فإنَّ الصدقَ طُمأنينةٌ وإنَّ الكذبَ رِيبَةٌ) والبركة في الرزق الحلال ولو قل.. ومن المستحيل أن يتاجر في أدوية مجهولة المصدر أو مقلدة مثل "الكمجرا" و"المماجرا "و"الفيجا" وجميعها أدوية مقلدة للعقار الأمريكي الشهير "الفياجرا" وكانت وزارة الصحة المصرية في أواخر التسعينيات ترفض تسجيل "الفياجرا" في مصر لعدم كفاية الدراسات عليه مما فتح بالتوازي سوقاً خلفية رائجة للأدوية المغشوشة والمقلدة والمهربة من عقار يرفع من هيبة البسطاء المنهزمة أمام زوجاتهم بفعل ضغوط الحياة وأمراض العصر... أي أن الزمان زمان "الحبة الزرقاء والحمراء" ولكن الشيخ الطيب رفض هذه المكاسب الحرام.. الطريف أن جاره الصيدلي الذي لم يترك من هذه السبل سبيلاً إلا وأتجر فيه وأثرى أصبح من كبار النقابيين ويخطب فيهم حول "أخلاقيات المهنة " وعجبي.. !!

كان الشيخ الطيب يرفض التعامل بالآجل مع شركات الأدوية خشية السقوط في هوة الربا السحيقة.. وكثيراً ما كان يضيق ذرعاً بكل هذا ويعين من الصيادلة من يقوم بأمر الصيدلية ويكتفي بالقدوم لأخذ الايراد اليومي خوفا من أي ممارسة يشعر أنه مضطر لفعلها لزيادة مكاسب صيدليته من وصف أدوية مغالى في أثمانها أو الامتناع عن إبداء رأي أمين في روشتات صادرة من طبيب لا يراعي الله في مرضاه ويكتب حسباً لاتفاقه مع شركات الأدوية مقابل أموال يحصل

عليها منها أو بيع "الباراسيتامول" لأصحاب المطاعم من أجل سرعة إنضاج الدجاج وتسويته..
لكن الدنيا ومصاعبها وتحدياتها وفتنها كانت أصعب وأكبر من أن يعتزلها الشيخ طلباً للبعد عن الحرام فغرق في أعاصيرها التي جذبته إليها على غير إقدام منه أو إرادة.. فزادت مطالبات الشركات له ولجأ إلى الآجل معها مضطراً.. ومما زاد من كربه "الشكك" ودفع المرضى له بالآجل وما أقل وفائهم...
كان الشيخ الطيب يخصص "دفتراً" كبيراً لتقييد الآجل كل تحت اسم صاحبه وكان من رواد الدفتر شيخ يعمل في التدريس الديني.. القيد في صفحته لا يتوقف ليلاً أو نهاراً.. والشيخ الطيب يمنعه الخجل من مطالبته بشكل صريح بمستحقاته لديه.. ولكن ما إن تعدت مديونيته ألفين جنيه وهو مبلغ كبير في مطلع الألفينيات فاضطر الشيخ الطيب غير باغ ولا عاد إلى الدفع بجهود الوساطة لدى الشيخ المعلم ليدفع المتأخر عليه فامتنع ومع كثرة الوساطات وامتدادها لشهور أتى لدفع قسط واتفق على سداد الباقي وهو ممتعض قائلاً: "هيا الدنيا حصل فيها إيه.. طارت يعني".. وأخذ في اليوم نفسه ضعف ما دفع أدوية ومستحضرات..
ثم انقطعت سيرته وترامى إلى السمع أن ابنه الشاب قد قتل بيد عشيق زوجته بعد أيام قليلة من زفافه.. طبعاً الشيخ الطيب لم يشأ أن يزيد على الرجل في محنته وتحمل دينه في صبر واحتساب..
بعد ذلك كنت قد سافرت للخارج وانقطعت أخبار الشيخ الطيب عني إلى أن علمت من بعض المقربين أنه مات من فرط العمل حيث اضطر في أواخر أيامه سداداً لديونه المتراكمة أن يصرف كافة العمالة لديه وأن يعمل وحده على مدار أكثر من عشرين ساعة متواصلة وليدبر متطلبات أسرته الكثيرة حتى سقط ذات يوم شهيداً من الإعياء في صلاة الفجر، وكان يؤذن يومياً لها ويقيم الصلاة..
ومن وقتها وكرهت هذا المجال الذي لا يحمل لي سوى السيِّئ من الذكريات ولأن لي صيدلية بالريف كما تعرف فلم أتجاسر على فتحها.. مع نصائح بعض الزملاء من ذوي الخبرة والتجربة أن الأرياف مبخرة لرأس المال وبوابة لتآكله بفضل سريان "الشكك" بها كالنار بالهشيم.. وللأسف الشديد القليل من يغنم من صيدليات الريف وذلك عبر الطرق الملتوية مثل بيع المخدرات والمستحضرات غير المسجلة والمهربة في غفلة من الرقابة الصحية الضعيفة في هذه الجهات.

السؤال الثاني عشر

تحدثت في كتاب "صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر" عن التصريح بدفن بعض الأحياء بالخطأ في القبور.. الواقعة التي أشرت لها تعود لعام 1292هجرية أي 1876م وهو تاريخ قديم.. فهل تطورت اللوائح والقوانين التي تمنع تكرار هذه الحالات مستقبلاً؟!

من خلال تتبع أرشيف الصحافة المصرية.. فهذه الحوادث تكررت كثيراً بلا رادع وبلا دراسة لسبل عدم تكرارها.. وأطرفها ما حملته جريدة "المقطم" في 7 مايو 1942م من خبر غريب عبر مكاتب الجريدة في "طما" خلاصته أنه وفي 30 أبريل توفيت الفتاة "وصيفة غلاب" بناحية "المدمر" بمركز "طما" بمحافظة سوهاج وبعد الكشف عليها طبياً رخص بدفنها وشيعت جنازتها.. في 5 مايو وبينما كان "التربي" ماراً أمام قبر المتوفاة سمع صوتاً خافتاً صادراً منه فتجاوب معه فردت الفتاة المتوفاة وعرفته باسمها وأنها لازالت حية وتريد الخروج من القبر فأسرع الرجل في الحال لإخبار أهلها وهرعوا جميعاً إلى القبر وأخرجوها من كفنها وعادوا بها إلى المنزل وانقلب الحزن فرحاً والنواح ولطم الخدود زغردة وسعادة.. تم إبلاغ البوليس كما هو متعارف عليه في هذه المواقف وأرسل حضرة الدكتور "عبد الرحمن خالد" مفتش صحة المركز إلى منزل الفتاة فوجدها بصحة جيدة وحقنها بمغذيات لتقويتها بعد ما أصابها من هزال في الأيام الستة التي قضتها في القبر وسألها عما شعرت به فأجابت أنها لم تشعر بطقوس الغسل أو مراسم الدفن وبدأت تشعر بنفسها قبيل حديث التربي معها.

السؤال الثالث عشر

هل كان فاروق متسامحاً وديموقراطياً حقاً كما قال عن نفسه ونقلت عنه في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام"؟!

إلى حد ما نستطيع القول بذلك ولا نجزم به لضبابية الكثير من القضايا التي لا تطرح للرأي العام بشكل كامل ومحايد.. لكن من خلال رصد بعض الأطر العامة يمكن القول مبدئياً أنّ "فاروق" كان أخف وطأة وأقل تنكيلاً في محاولة اغتيال تعرض لها مقارنة بما فعله والده الملك "فؤاد" من عظائم الأمور بحق الأمير "أحمد سيف الدين" شقيق زوجته "شيوه كار" والذي حاول اغتياله..

في عام 1938م جرى اتهام الشاب "جان أصفر" الطالب بالسنة الثالثة بكلية الحقوق ونجل الأستاذ "جبرائيل أصفر" المحامي السوري بمحاولة اغتيال الملك "فاروق" بجوار حمام السباحة في نادي "سبورتنج" بالإسكندرية وذلك بعد عام واحد من تولي "فاروق" الحكم وفترة وجيزة من زواجه من الملكة فريدة وكان في أوج شعبيته الجماهيرية في ذلك الوقت لذا تبدو دوافع المتهم شديدة الغموض ..

قبض على "جان أصفر" ولم يصب "فاروق" بسوء والذي ترعاه "عناية الله الصمدانية" بحسب وصف مجلة "اللطائف المصورة" في عددها 1231 في 12 سبتمبر 1938م (لاحظ أن اللطائف المصورة عاودت الصدور حتى تلك الفترة) فيما أصابت الرصاصة الطائشة الفخذ الأيسر لشخص إيطالي يدعى "أوغسطيتو جيزموندي" من مستخدمي أحد المحال التجارية الإيطالية بمصر..

خلف لطف الله بفاروق قصة لمصادفة قدرية شديدة الغرابة. ففي هذا اليوم دفع الفضول "حسنين عبد الرحيم" حاجب بمحكمة الاستئناف (وقبلها سائق خاص لنقيب المحامين "الفريد كانا فليس") لمشاهدة السيارة العجيبة التي أهداها زعيم ألمانيا النازية "أدولف هتلر" لفاروق بمناسبة زفافه وبينما "حسنين عبد الرحيم" على وشك العودة سمع موسيقى وتصفيق في حفلة سباحة بالنادي فازداد فضوله واستغل أن خدم النادي يعرفونه من وقت أن كان سائقاً لنقيب المحامين فسمح له بالدخول وصعد إلى سطح الشرفة المطلة على حمام السباحة ليتمكن من تتبع المسابقات ومشاهدة مليك البلاد عن قرب.. لكن الشاب الذي يقف أمامه كان طويلاً للغاية مما حال بينه وبين تحقيق أمنيته حيث حجب عنه الرؤية بالكلية.. وبينما "حسنين" يقول له: "انعدل شوية يا خواجة" حتى يتمكن من المشاهدة

ومتابعة الحدث لم يلتفت الشاب له ولم يعره انتباهاً وفجأة أخرج مسدسه نحو صدر "فاروق" بعد انتهاء المسابقات.. هنا فزع "حسنين" وصرخ وأمسك بذراع الشاب وثناه "حوش.. حوش جلالة الملك.. جلالة الملك" وتعلق بعنقه باليد الأخرى فأخطأت الرصاصة صدر "فاروق" وأصابت الشاب الإيطالي كما أسلفنا..

حاول الشاب الهروب لكن "حسنين" ظل ممسكاً به واجتمع الجمع حوله وانتزع اليوزباشي "طه عبد الباقي" المسدس من يده وطرحوه أرضاً وأوسعوه ضرباً ولكماً وبصقاً واقتيد إلى "مخفر(قسم) محرم بك" أما "حسنين" وبحسب روايته لمجلة التحرير في 19 ديسمبر 1952م فقد صوب "جان أصفر" له لكمة شديدة طرحته أرضاً فلمحه "فاروق" وعاونه على الوقوف وصحبه في سيارته وقال له: "تفتكر الشاب ده كان عاوز يقتلني؟!" قال "حسنين": "طبعاً أمال كان ناوي يعمل إيه؟!" وبحسب المجلة المحسوبة على الثورة فقد ضحك "فاروق" وصفع "حسنين" على قفاه فضحك هو الآخر وبحسب عنوان المجلة فقد انتهى الحادث ببراءة للمتهم وعامين في السجن مكافأة لمن أنقذ المليك المفدى.

جاءت حيثيات الحكم الصادر غيابياً من محكمة جنح العطارين بالإسكندرية في يوم 25 يناير 1939م بحبس "حسنين عبد الرحيم" سنتين مع الشغل وكفالة عشرين جنيهاً ومصادرة المسدس المضبوط في الحادثة مستنداً على أن "حسنين" أبلغ الجهات المختصة كذباً ومدفوعاً بسوء القصد بأن "جان أصفر" شرع في اغتيال الملك "فاروق" وأنه أحرز مسدساً بدون رخصة فيما برئ من تهمة الإهمال وإصابة الرجل الإيطالي في فخذه..

أين الحقيقة فيما جرى؟! ومن هو الجاني؟! حقيقي لا أعلم.. وليس من المهم أن نعلم.. ولكن الأهم أن نعرف ماذا جرى بعد ذلك؟!

وأدهش ما جرى أن "جان أصفر" أصبح لاعباً في نادي السلاح الملكي وأحرز برونزية سيف المبارزة عام 1949م في القاهرة ضمن بطولات العالم وحصل عليها مرة أخرى عام 1955م في ألعاب البحر المتوسط في "برشلونة".

لاحظ هنا عدة أمور أهمها أنني وأنا أبحث عن معلومات عن "جان أصفر" وجدت العديد من الرياضيين كانت مصر تمنحهم "الجنسية المصرية" للعب باسمها وإحراز البطولات.. أي أنه وفي العهد الملكي كان هناك بحث عن الكفاءات لضمها للنسيج المصري ومن ثم تشجيع أبناء الشعب أن يحذو حذوهم ويصبح لمصر رصيد من اللاعبين المصريين الأكفاء ويتم الاستغناء عن

الأجانب وهو ما تحقق وبقوة وبدون دعم مباشر من الدولة المصرية.. فهل اليوم وبعد أن أصبحت مصر تمتلك ثروة هائلة من اللاعبين المصريين تصبح طاردة لهم فيتنازلون عن جنسياتهم المصرية ويلعبون بجنسيات أجنبية؟!

الأمر الآخر وبصرف النظر عن حقيقية ما جرى في نادي "سبورتنج" فقد أبدى الملك "فاروق" كما هو واضح من سير الأحداث تسامحاً كبيراً ولم يسمح لدائرة الانتقام أن تطال القاصي والداني فعقاب "حسنين" الهين وطاقة القدر التي انفتحت لجان أصفر لم تكن لتحدث لمثلهما وفي واقعة كهذه لو كان الحاكم غير "فاروق".. ولو بحثنا في التاريخ لوجدنا الأمر نفسه ينطبق على حادثة "ريجان" الشهيرة. ففي 30 مارس 1981م تعرض الرئيس الأمريكي الأسبق "رونالد ريغان" لعملية اغتيال فاشلة أثناء خروجه من فندق الهيلتون بواشنطن.

حيث أطلق "جون هينكلي جونيور" ست رصاصات من مسدس "روم آر جي-14" باتجاه الرئيس الأمريكي والذي أصيب برصاصة في الصدر استقرت في رئته تعافى منها.. فيما أصيب المسؤول الإعلامي "جيمس برادي" برصاصة في الرأس أحدثت تلفاً بالدماغ وأفقدته الحركة حتى توفي عام 2014م كما أصيب أيضاً اثنان من الضباط في الحادث.

أما عن دوافع الاغتيال فكانت مثيرة إذ أراد "جون هينكلي جونيور" -المصاب بالذهان الحاد والاكتئاب واضطراب الشخصية النرجسية - أن يجذب انتباه الممثلة "جودي فوستر" الأثيرة إلى قلبه فقام بمحاكاة لفيلمها "سائق التاكسي" ليجذب انتباهها إليه وقد تضمن الفيلم محاولة البطل "ترافيس بيكل (أدى دوره الممثل روبرت دي نيرو)" اغتيال عضو مجلس شيوخ رشح نفسه للرئاسة.

الظروف الصحية لهينكلي أخذت بعين الاعتبار فلم يحكم عليه وأودع في مصحة للأمراض العقلية حتى خروجه منها في 10 سبتمبر 2016م حيث قررت إدارة المستشفى أن استمرار علاجه الداخلي لم يعد مناسباً. كما أصدر القاضي قراراً أنه لم يعد يشكل خطراً سواء على نفسه أو المجتمع.

السؤال الرابع عشر

في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" تحدثت عن ثراء الأميرة "شيوه كار" وحرصها على تنمية ثروتها حتى آخر حياتها.. وأعتقد أن هذا ليس منطقياً مع تقدم عمر أي شخص وخشيته من بلوغ الأجل المحتوم.

كان لأميرات الأسرة العلوية دوائر لإدارة شؤونهم ومن صميم مهام هذه الدوائر متابعة الأمور المالية لأصحابها بدقة متناهية ويمكن أن أستعين في الرد على هذا السؤال ببعض الأوراق التاريخية (على سبيل الاستئناس) الخاصة بدائرة الأميرة "شيوه كار إبراهيم" لرصد صورة من صور ما تبديه هذه الدوائر من متابعة لكل صغيرة وكبيرة تختص بالأميرات ومن يتبعهن..
القصة التي تناقشها أوراق الدائرة تعود إلى 23 يونيو 1945م وخلاصتها بحسب الأوراق المتاحة أن حضرة صاحبة السمو الأميرة "عفت حسن (ابنة الأمير حسن من الأميرة خديجة.. راجع "رواق القصص الرمضاني")" كانت قد استأجرت منزلاً بأول شارع الهرم من حضرة الست "ملك هانم فائق" وأجرته من الباطن لحضرة صاحب العزة "أحمد بيك أبو الفتوح".. الطريف أن المستأجر من الباطن أحدث تلفيات بالمنزل.. مما اضطر صاحبة المنزل بحسب الأوراق ألا تتسلم المنزل حتى يتم حسم مسألة *إصلاح* التلفيات وناقشت المدعو "محمد أفندي شجر" (لا نعرف وظيفته وتبعيته على وجه التحديد لكن واضح أنه مسؤول بالدائرة) في الأشياء التي أتلفها المستأجر من الباطن وهي على الوجه التالي: (فواطه ويد الدش الصيني وشماعة اللآفومانو وعدد 2 قطع مربربت وجميعها بالحمام البمبي -لوح زجاج بالبدروم -واحد لآفومانو بالدور العلوي -رف بللور -سديلى خشب جوز -سلطانيه إفرنكي بالسطح مشروخة- سلك أودة الفراخ بالجنينه -غطاء كمبنيشن مكسور) وأبلغ "شجر أفندي" مندوب "أحمد بيك أبو الفتوح" وأعطاه البيان منذ أكثر من أسبوعين ولم يحضر شيئاً..
قامت دائرة سمو الأميرة "شيوه كار هانم إبراهيم"- (غير واضح علاقة الأميرتين وهل لم تكن للأميرة "عفت" دائرة خاصة بها) - بمطالبة "أحمد بيك أبو الفتوح" بمبلغ 53 جنيهاً و950مليماً قيمة ما أنفق في إصلاح الإتلافات بالمنزل، وذلك في 8 أكتوبر 1945م وأمهلته مدة عشرة أيام تجنباً للجوء

للقضاء وتوفيراً لنفقات التقاضي.. لكن الواضح أنه أبى وتم تصعيد الأمر للقضاء وتم رفع القضية رقم 3651 سنة 1946م من جانب الأميرة "عفت حسن" ضده أمام محكمة الأزبكية الوطنية.. وبحسب الأوراق فقد تقاضى "أحمد بيك رشدي" المحامي من دائرة سمو الأميرة "شيوه كار إبراهيم" مبلغ ثلاثة جنيهات و600 مليم تحويلاً على البنك البلجيكي والدولي لحساب مصاريف الدعوى ضد "أحمد بيك أبو الفتوح"، وذلك في 16 مايو 1946م.. وتحددت جلسة 10 سبتمبر 1946م لنظر الدعوى أمام محكمة الأزبكية الوطنية.. وتم التأجيل لجلسة 22 أكتوبر للاطلاع بناء على طلب المدعى عليه.. المثير أنّ الأميرة "عفت حسن" خسرت القضية المرفوعة لعدم وجود دليل مادي على حصول التلفيات من المدعى عليه وهو ما يتضح من خطاب دائرة سمو الأميرة "شيوه كار" في 26 ديسمبر 1946م للمحامي أحمد رشدي بيك تستطلع رأيه في جدوى استئناف الحكم من عدمه وإذا كان هناك أمل في كسب الدعوى استئنافياً، فجاء رده المؤرخ في 30 ديسمبر 1946م أن الأمل ضعيف للغاية في الاستئناف.. وعند هذا الحد توقفت الأوراق عن بوحها.. ولا نعلم إذا أصرت الدائرة في استمرار النزاع أو حركت جهود التسوية الودية مجدداً لأقل خسارة ممكنة..

هذه قضية بالتأكيد كانت واحدة من مئات القضايا داخل أروقة الدائرة، وقد اخترتها لأنها انتهت مع نهاية عام 1946 م والأميرة "شيوه كار" قد توفيت في 17 فبراير 1947 م.. أي أنّ العمل في هذه الدوائر منفصل عن حياة أصحابها وقدرتهم على المتابعة وإن كانت لازمة لأنها بؤرة للفساد والتحايل إن تركت وشأنها.. وقد رصدت أفلام "نجيب الريحاني" أمثلة كثيرة..

السؤال الخامس عشر

في كتابك "صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر" وكتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" تحدثت عن نشاط جمعية منع المسكرات التي كان يرأسها الأمير "عمر طوسون".. هل من الممكن أن تحدثنا عن نتائج هذه التجربة في ضوء أرشيف الصحافة المصرية؟

من نتائج نشاط الجمعية والتي نلتمسها من حديث الدكتور "أحمد غلوش" لمجلة المصور في عددها 1245 بتاريخ 20 أغسطس 1948م تحت عنوان "40 عاماً في مكافحة المسكرات!" وذلك بمناسبة مرور أربعين عاماً على تأسيس جمعية "منع المسكرات العامة" ومن أبرز مظاهر نجاح الجمعية أنها هبطت بعدد الحانات في القطر المصري والمقدر بأربعة آلاف حانة عام 1908م إلى ما دون الألف عام 1948م رغم التزايد المطرد في عدد السكان طوال هذه الفترة الزمنية الفاصلة، كذلك اختفاء الإعلانات عن الخمور من دفاتر التليفونات، ودليل السكك الحديدية والميادين الكبرى. كما أنشأت وزارة الصحة مكتباً خاصاً لمكافحة المسكرات، وخصصت الرسوم والضرائب والمقدرة بمئات الآلاف من الجنيهات المنبثقة عنها للإنفاق في مختلف وجوه الخير والإحسان (في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللَّهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْسَلِينَ، فقالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: 51]، وقالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: 172]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟! أموال تُجنى من حرام.. تنفق في وجوه البر، وهذا من أعظم أسرار نحس الموازنة العامة في مصر عبر تاريخها وعجزها الدائم).. ومن الطرائف التي يسوقها "غلوش" ويستدعيها من ذاكرة جهاده ضد المسكرات أنه وفي عام 1926م مرض مرضاً شديداً، وتعافى منه فنصحه الأمير "عمر طوسون" بقضاء بضعة أيام في فندق بأبي قير حيث الهواء النقي هناك وأرسل معه باشمعاون الدائرة.. تمتع "غلوش" بخدمة ممتازة في الفندق.. وسعياً واستثماراً من صاحب الفندق لعلاقة "غلوش" بأولي الأمر في البلاد، وكان يجهل طبيعة

عمله بالضبط، فقد طلب منه أن يتوسط له في منح الفندق رخصة خمور لأنه يضطر إلى إعطائها للزبائن سراً.. خشي "غلوش" أن يفقد العناية الفائقة التي يبديها له صاحب الفندق والذي كان يقوم على خدمته بنفسه طوال الوقت فأظهر تصنعاً وبدأ يسايره حتى موعد رحيله فخرج صاحب الفندق يودعه وينحني له قائلاً: "أوعى تنسى يا سعادة البيك رخصة الخمر؟!" وبالفعل لم ينسَ "غلوش" موضوع الخمر وكان سعيه له من وجهة أخرى؛ إذ ذهب من فوره لمحافظ الثغر وأبلغه بمخالفة الفندق وتقديم الخمر سراً دون ترخيص فصدرَ أمرٌ بإغلاقه..

ويحكي "أحمد غلوش" أيضاً أنه وفي عام 1928م أراد المشاركة في المؤتمر الدولي التاسع عشر لمنع المسكرات في بلجيكا ممثلاً عن الحكومة.. وكان على رأس الحكومة وقتئذ "محمد محمود باشا" والذي كان بينه وبين الأمير "عمر طوسون" نفور وجفاء.. رفض الأمير في البداية أن يتوجه برجاء لحكومة لا يحبها ولكن مع إلحاح "غلوش" كتب كتاباً لمحمد محمود باشا يقترح تمثيل مصر في المؤتمر وترشيح "غلوش" لذلك.. وحمل "غلوش" الخطاب للأستاذ "إبراهيم دسوقي أباظة" مدير مكتب "محمد محمود باشا" آنذاك والذي اعتبر أن مخاطبة الأمير نصراً للوزارة وبعد مضي نصف ساعة جاء قرار "محمد محمود باشا" بتشكيل وفد مؤلف من الدكتور "غلوش" واثنين من الأطباء للمشاركة في المؤتمر..

ومع كل هذا لم يخلُ الأمر من تجاوزات مبعثها سطوة رأس المال ورجال الأعمال ومنها مثلاً ما تضمنه العدد 338 من مجلة "آخر ساعة المصورة "في 16 مارس 1941م من تفاصيل مثيرة عن القضية رقم (125/66) والمتهم فيها الخواجة "تيودور كوتسيكا" الثري اليوناني الشهير برشوة مدير جمارك القاهرة لحمله على أداء عمل من أعمال وظيفته، حيث قضت محكمة جنح مصر المختلطة في 13 مارس 1941م ببراءته من التهمة المنسوبة إليه.

وتعود القضية إلى أواخر ديسمبر 1939م، حيث وردت شكوى من أحد محلات بيع "السبرتو" بالإسكندرية إلى وزارة التجارة من أن تسعيرة الكحول التي كان معمولاً بها يومئذ من شأنها أن تدر أرباحاً طائلة على تجار الجملة (المقصود السعر مبالغ فيه فيما يتعلق بالمستهلك).. بعد عدة شهور أوفدت الوزارة الدكتور "ذو الفقار" لفحص كميات وأسعار المواد الداخلة في صناعة الكحول ومقارنتها بأسعار ما قبل الحرب، ومن خلال ذلك يمكن وضع تسعيرة عادلة ترضي المنتج والبائع والمستهلك.. بدأ الدكتور "ذو الفقار" مهمته بزيارة مصنع

"كوتسيكا" بطرة ومكتب الشركة بالقاهرة.. عدم كفاية المعلومات التي قدمها المصنع دفعت الدكتور "ذو الفقار" للاتصال بالدكتور "توفيق أحمد" مدير مكتب الإنتاج لاستجلاء الأمر، فعرض عليه الأخير مبلغاً من المال على سبيل التلميح..

كان الأمر جللاً وعلم "علي باشا ماهر" رئيس الوزراء وقتئذ بالقضية بمجرد حدوثها قبل التحقيق.. لكن طوق النجاة للمسيو "كوتسيكا" ملك السبرتو جاء في إطار نفي الدكتور "ذو الفقار" في التحقيقات أن الدكتور "توفيق أحمد" قد عرض عليه الرشوة باسم المسيو "كوتسيكا" فكان هذا مفتاح براءة الأخير.

الحقيقة أننا لو عدنا بالتاريخ وأردنا محاكمة هذا الرجل لما كنا اكتفينا بقضية تافهة كالرشوة والتي من السهل واليسير أن يتنصل منها.. لكن القضية الأكبر هي إفساد المجتمع بالسكر والعربدة وتدمير أواصره وجعل الكحول يتسلل لكل مناحي الحياة كأمر طبيعي وجزء من الحياة العصرية الخادعة.. فلك أن تتخيل "ماء غريب أو Gripe water" العريق في السوق العالمي والعربي في علاج المغص والتقلصات لدى الرضع والذي ابتكره الصيدلي البريطاني "ويليام وودوارد" عام 1851 م كان يحتوي على كحول بنسبة 3.6 % في الماضي، وأدوية الإلكسير (Elixir) التي يختلط فيها الكحول بالماء لإذابة المواد الفعالة، وكأنّ العلم قد عدم بدائل لهذا النهج من استخدام الكحول في التحضيرات الطبية حتى لو بكميات قليلة.. وكلمة العلم وللأسف كفيلة بإخراص من يرفض مثل هذه الأدوية من المشايخ العظام.. الدين هو من يطوع العلم لخدمته وليس العكس فالدين الأصل وما أضاع هوية الأمة الإسلامية إلا عدم تحرزها لمقومات دينها أوامره ونواهيه وإتباعها والانصياع لها بدقة.

وهذا يأخذنا *إلى* السجائر وبرغم مضارها الجمة وتدميرها للصحة كان لها توجه اقتصادي كبير وكأنّ الصناعة الوطنية المصرية والإشادة بلبناتها وريادتها لا يتحقق إلا مع السجائر... فمثلاً العدد 585 من "اللطائف المصورة" في 26 أبريل 1926م نشرت خبراً عن الخواجة "نسطور جاناكيس" صاحب أول مصنع للسجائر المصرية، وقضى خمسين عاماً مورداً لخديوي مصر وأمرائها وها هو أخيراً قد تعطف عليه جلالة الملك "فؤاد" ومنحه لقب "مورد جلالة ملك مصر" كما دعاه إلى القصر الملكي الساعة الحادية عشر صباحاً يوم الثلاثاء 13 أبريل لاستلام البراءة بذلك. والمعروف أن الملك "فؤاد" كان يستخدم نوعاً

واحداً من التبغ "دانهيل" وكان يدخن "البايب".. أما الخمر ففي الغالب أنه كان يشربها في المناسبات الخاصة جداً كوالده الخديوي إسماعيل..

وموقف الإسلام واضح من تحريم الخمر وقد جاء التحريم متدرجاً على مراحل قال "القرطبي": "وإنما نزل تحريم الخمر في سنة ثلاث بعد واقعة أُحُدٍ... وقال ما نصه: وتحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة، فإنهم كانوا مُولَعين بشربِها، وأول ما نزل في شأنها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾]البقرة: 219]؛ أي: في تجارتِهم، فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس، وقالوا: نأخذ منفعتَها ونترك إثمها، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]، فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشرِبَها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزلت:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾]المائدة: 90، 91]، فصارت حرامًا عليهم حتى صار يقول بعضهم: ما حرَّم الله شيئًا أشد من الخمرِ".

أما التدخين فالموقف منه لم يكن على هذا النحو من الاتفاق والحسم نظراً لحداثته وعدم وجود نصوص قطعية بتحريمه.. الفتوى الأولى بتحريم التدخين كانت محطتها المغرب عام 1602 م بعدما استطلع الملك "أحمد المنصور بالله الذهبي (نسبة لكثرة الذهب في عهده) أمير المؤمنين المولى أبي العباس المجاهد أحمد بن الإمام مهدي الأمة أبي عبد الله بن المهدي الخليفة الإمام القائم بأمر الله" رأي علماء الدين في " فاس" حول التبغ بعد دخوله بلاده عام 1598 م فجاء رأي مفتي المملكة ووالي سلا بتحريم التدخين.. ولما لم يجدِ الحكم الأول نفعاً تبعه حكمٌ ثانٍ بالتحريم القطعي لاستخدام التبغ باعتباره من المواد المحرّمة في الإسلام عام 1602م. وجاءت النتيجة عكسية حيث قُتل المفتي ومن تبعه من العلماء في هذا الحكم على يد الغوغاء من العامة الثائرين على الحكم، فيما فرّ البعض الآخر من البلاد.

وفي مصر أصدرت دار الإفتاء المصرية، برئاسة الدكتور "نصر فريد واصل"، مفتي الديار المصرية (أفخر أني من تلاميذه بالمعهد العالي للدراسات الإسلامية) فتواها في 5 سبتمبر 1999، بالحرمة القطعية للتدخين وأنّ "العلم قد قطع في عصرنا الحالي بأضرار استخدامات التبغ على النفس، ولقد حرّم الإسلام على كل مسلم كل ضار، لكي يحفظ على المسلم نفسه ودينه وعقله وماله وعرضه" وفي حديث مع المفتي آنذاك الدكتور "نصر فريد واصل" بمجلة أكتوبر أشار أن حرمة التدخين أشد من حرمة الخمر ذلك أن "الخمر تضر بصاحبها فقط أما التدخين فإنه يضر بالمدخن ومن حوله دون أن يدري وهذا ثابت علمياً" وأن كل ما يتصل بالتدخين حرام من صناعة وتجارة وبيع وشراء *وإعلان* وترويج.

من الناحية التطبيقية وللأسف الشديد نجد الخمور قد انتشرت قديماً وحديثاً في شتى الأقطار الإسلامية فكانت حاضرة في مجالس بعض الخلفاء الأمويين ومنهم "يزيد بن معاوية" والذي أطلق عليه "يزيد الخمور" كما جاء في كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" كما روى "أبو الفرج الأصفهاني" في كتابه "الأغاني" أن "الوليد بن يزيد" كان يسبح في بركة من الخمر وعلى الخطى ذاتها سار بعض الخلفاء العباسيين وصارت مجالسهم ساحات للرقص والخلاعة والمجون واحتساء الخمور.. وإذا فسد الرأس ماذا تتوقع أن يصيب الجسد غير الترهل والفساد؟ فانتشرت الحانات لبيع الخمور بين الناس وقام عليها المجوس واليهود والنصارى.. وبلغ الهوس بالخمور مبلغاً دفعهم لتجربتها على الحيوانات ومنها الإبل والبقر والجواميس والخيل والأسد والأفاعي كما أورد "الجاحظ" في كتابه "الحيوان".. أما عن أقدم الخمور، ففي لندن يوجد لدى الخواجات "أرمانس" زجاجات من الخمر ترجع إلى عام 1540 م و1631م وقصتها أنه كان لدى "لودفيك" ملك بافاريا المجنون مائة ألف زجاجة من أعتق وأنفس خمور العالم لكن ذات يوم خيل إليه أن الخمر المعتقة سامة لا تشرب.. فباعها للخواجة "أرمانس" فاشتراها صفقة واحدة وذلك بحسب أرشيف الصحافة المصرية.. وقد لقب "لودفيك الثاني" بالمجنون بشهادة "برنهارد فون غودن" أن الملك "يتأرجح مثل رجل أعمى من دون توجيه على حافة الهاوية" وكانت أفعال الملك ترجمة حرفية لذلك فأغرق بلاده في ديون كبيرة بسبب مشاريع البناء الضخمة والقصور الفارهة.

أما التبغ والتدخين فتصور أن "محمد علي باشا" باني مصر الحديثة كان تاجراً للدخان بثروة زوجته الأولى "أمينة هانم" وكان يقوم بجلبها للداخل المصري ومن أطرف ما رواه "الجبرتي" عنه أنه امتلك مقهى كبيراً في شبرا لتناول القهوة وتدخين التبغ، وقد تعرض المقهى للسرقة بحسب مع أورده "الجبرتي" في حولياته في 1231هجرية، كما جرى توطين زراعة التبغ في الفيوم بشكل محدود وفرض عليها الضرائب في عهد سعيد باشا ما بين قرشين ونصف إلى خمسة قروش لكل قنطار من الدخان.. لاحظ هنا أنّ التبغ والقهوة كانا محرمين لدى الكثير من المشايخ في مصر ومع ذلك حاكمها يتاجر فيهما.. ألا يقولون في المثل "طباخ السم يتذوقه" فقد كان "محمد علي باشا" يدخن "التبغ" ويشرب القهوة أيضاً كالأوروبين، وقد حسموا هذه المسائل منذ زمن ولكن حتى لا يثير غضب بعض المشايخ الذين مازالوا على تحريمهما كان يتظاهر بالعزوف عن "القهوة" لكونها غير نظيفة حتى يضطر خادمه أن يحلف بفقدان ساقه وذراعه أن الماء نظيف قائلاً: «فلأحرم من استعمال ذراعي وساقي، وأن أظل طوال حياتي أهيم على وجهي أتسول من الناس عبر الطرقات إذا لم يكن هذا الماء نظيفًا» هنا يضطر الباشا تلطفاً إلى احتساء القهوة ترضية لخادمه المخلص!

على النقيض نجد دعاة من الغرب نبذوا المسكرات ودعوا لمنعها ومنهم مثلاً ما نشرته "اللطائف المصورة" في العدد 461 في 10ديسمبر 1923م عن زيارة المستر "جونسون" المصلح الأمريكي العظيم زعيم منع المسكرات في أمريكا الملقب "برجل الهرة" لمصر في طريقه إلى الهند بعد أن جاب أوروبا وإنكلترا لنشر دعوته واستقبله الناس بالازدراء ورؤوس البطاطس والبيض ويعضده في أمياله الإصلاحية في مصر صديقه العالم الحكيم الدكتور "هاول" معتمد دولة الولايات المتحدة. ومن بعده زيارة الآنسة "اغنيس سلاك" البريطانية والسكرتيرة الفخرية لاتحاد النساء المسيحيات العالمي لمحاربة المسكرات وألقت عدة محاضرات بمعاونة جمعية "منع المسكرات المصرية "برعاية الأمير عمر طوسون" وذلك بحسب ما جاء في أرشيف مجلة "المقتطف" في فبراير 1929 م.

انظر إلى حجم التبجيل والتفخيم لدعوة يقودها أجنبي أو أجنبية ببلادنا.. مع أن الحق يقتضي أن نوجه الشكر والتقدير للدعوة الإسلامية التي تبنت هذا الاتجاه ودعت به وله قبلها بقرون.. ولكنّها "عقدة الخواجة" لدى المصريين.. فالألسنة تنعقد إن نطق الأجنبي.. وهالات القداسة تحيط بأي كلمة يلفظها وتصبح حكمة

أو مأثور قول.. ما الفرق بيني مثلاً ككاتب وبين مستشرق؟! البرنيطة والهندام الغربي وسحر الحضارة الزائف هو ما أسبغ على المستشرق مكانته.. كل ما يفعله المستشرق أنه يعمل بتجرد تام مفترض لا يميل فيه لوجهة ما.. فيكتشف كتبك التراثية يا حضرة الشرقي الكسول ويعيد قراءتها ويقارن بينها ويستخرج عيوبها ويسلط الضوء على محاسنها ومكامن قوتها ويعيد صياغة أفكارها العظيمة بلغته.. فهل ينقصك العقل يا عزيزي الشرقي لتسبقه فيما سبقك إليه وأنت نائم؟! إن روح المغامرة والعمل الجماعي هي الفارق بين الغرب والشرق.. فالغربي قادر على العمل المشترك والقفز على العوائق في تحدٍ لا يعرف النفس القصير.. بعكس الشرقي الذي يولول مع كل عائق ويسطر صفحات عن جهاده مع كل حركة قدم يخطوها كأنه بلغ الجبال طولاً.. ويهلل ويزمر ويمجد قبل أن يصل لنتيجة.. وإن وصل للنتيجة محا جهود كل من عاونه وظهر بمظهر الفارس الأوحد الذي خاض معاركه مرتكزاً على ساعديه! وتتحول نتيجة بحثه وخلاصة فكره لصراع بين زملاء حول ملكية العمل ويضيع الطريق.. ومع كل محاولة في سبيل ما.. نبدأ من الصفر لنصل للصفر مجدداً وهكذا...

نختتم مبحثنا بالضلع الثالث في مثلث الخراب ألا وهو المخدرات.. وقد تعرضنا لهذه القضية الشائكة في كتب سابقة بشكل موسع ومسهب لذلك سأكتفي بالحديث عن واحدة من أغرب وقائع الاتجار في المخدرات وتظهر بشكل جلي حجم فساد الأخلاق وغياب القيم في المجتمع للأسف الشديد... تتلخص الواقعة في أنّ رجلاً مسيحياً ادعى الإسلام هو وأبوه، وأردف كلمة "المهدي" في نهاية اسمه وأطال لحيته وارتدى ثياب الصالحين وسلك مسالكهم.. ومنها أن أنشأ مسجداً في بقعة ظاهرة من أنحاء العاصمة "القاهرة".. خلف هذه المظاهر الخادعة كان الرجل محترفاً في تجارة المخدرات ومداوماً على شربها ومع ذلك لا تلمح منه أي إمارة على "السطل" بل كان متزناً وواعياً.. وقد رتب لتجارته حيلة لا يجرؤ على فعلها الشيطان نفسه.. فكان يتولى مهمة الأذان بنفسه فيما رتب للمسجد إماماً لإقامة الصلاة.. وكان الأذان علامة لزبائنه ليتسللوا خلفه على سلم المئذنة والتي أخفى فيها أحراز المخدرات.. وكان لا يتورع عن أن يجيب على زبائنه في سياق الأذان "الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أيوه جاي يا أسطى حسين.. أشهد أنّ محمداً رسول الله.. نازل حالاً يا معلم بيومي.. حي على الصلاة.. دقيقة واحدة يا إبراهيم أفندي" وفي الوقت ما بين أذان الصلوات كان

يدير "الجوزه" في ركن مهجور من المسجد مع أقرانه الفاسدين، فإذا حان وقت الأذان رفعها وأسرع لرفع الأذان وإدارة عمليات البيع.. واستمر الوضع على ذلك حتى تمكن البوليس من ضبطه متلبساً.. حيث صعدوا المئذنة وهم متنكرين وقبضوا عليه وهو يبيع بضاعته بحوار المئذنة، وذلك بحسب أرشيف مجلة "الاثنين والدنيا" في الأربعينيات من القرن الماضي.

السؤال السادس عشر

في كتابك "تاريخ حائر بين بان وآن" تحدثت عن ظاهرة الرجل الخارق للعادة في ضوء شخصية "طهرا بيك" وأنّ أحد المشايخ قد تأثر بدرجة تطويع النفس على هذا الشكل واستخدمها في تفسيره لبعض آيات القرآن.. فهل هناك في ضوء أرشيف الصحافة المصرية أمثلة أخرى تندرج تحت نفس العنوان؟!

ثمة مثال آخر جديد نتناوله بالفحص والتمحيص ألا وهو "حامد بيك" الفقير (لقب يطلقه الغربيون على الهنود والشرقيين الذين تتحكم أنفسهم على أجسادهم ويقومون بأعمال خارقة تتعدى الأفهام والعلوم) وبحسب ما جاء عنه في العدد الخامس عشر من صحيفة "البلاغ الأسبوعي" في 4 مارس 1927م فهو مصري قبطي في الرابعة والعشرين من عمره ويقوم بأعمال مدهشة في مدينة "*إنجلوود*" الأمريكية.. وقد بهر الأمريكيين إذ دفن حياً بعد أن بلع لسانه وسد فمه وأذنيه بالرمل ومكث مدفوناً في الرمل على مرأى ومشهد من الناس مدة ساعتين وثلاثة أرباع الساعة، ثمّ خرج من مدفنه واقفاً على قدميه وتبدو عليه مظاهر الحياة التامة.. وتنقل المجلة تفاسير العلماء وتعليلاتهم عن هذه الظاهرة ومنها أنها ناشئة من قوة تركيز الفكر وحصره في شيء معين حتى يتغلب على كل ألم والبعض يرجعها إلى حالة نفسية خاصة تعلو بالجسم على كل تأثر وإحساس فيما يعتبرها البعض وليدة الخداع أو خطأ حواس المتفرجين والمشاهدين على الأقل.

السؤال السابع عشر

في كتاب "حكايات من بحور التاريخ" تحدثت عن نذر السلطان "حسام الدين لاجين" لإعادة تشييد جامع "أحمد بن طولون" إن كتبت له السلامة وقد كان السلطان "لاجين" مختبئ في مئذنته وكانت متخربة بعد اشتراكه في اغتيال السلطان الأشرف "خليل بن قلاوون".. فهل لك أن تعطينا تفاصيل أكثر عن كيفية بر السلطان لقسمه تجاه الجامع؟!

كان السلطان الملك المنصور "حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري (لاشين بالتركية وهو نوع من الصقور ولقب بـلاجين الصغير وأبو الفتوح) "- وليس "حسام الدين بن لاجين" كما جاء سهواً بالخطأ في كتابي - قد أوكل مهمة عمارة وترميم وتعمير أوقاف جامع "أحمد بن طولون" للأمير "علم الدين الدواداري سنجر الأمير الكبير العالم المحدث أبو موسى التركي البرلي الدواداري" فقام بالمهمة أحسن قيام فعمره ورتب دروسه في الفقه والحديث وجعل وقفاً يختص بالديكة التي تكون على سطح الجامع في مكان مخصص لها.. زاعماً أن الديكة تعين المؤقتين وتوقظ المؤذنين في الأسحار ووقت صلاة الفجر وضمن ذلك في كتاب الوقف.. فلما قرأ السلطان ذلك استوقفه هذا التخصيص وأنكره وخشي أن يوقع بين الناس فتنة.. فقال معقباً: "أبطلوا هذا لا يضحك الناس علينا" إذ رآها السلطان بدعة لم يسبق "علم الدين سنجر" إليها أحد والرابح الوحيد منها والمستفيد الأول والأخير "الديوك"!

السؤال الثامن عشر

في كتاب "على هامش التاريخ والأدب" تحدثت عن "ألمظ" و"عبده الحامولى" وقصة الحب الخالدة التي أذابتها الطبيعة الهرمونية للرجل الذي لا يخلص لفكرة المرأة الواحدة في حياته.. عمي من محبي "عبده الحامولي" ولديه أسطوانات قديمة آلت إليه بالوراثة وهي يعمل مأذوناً ومفتوناً بفكرة أن امرأة واحدة لا تكفي وكثير الزيجات من المطلقات على يديه في المنطقة.. ألهذا الحد لا يوجد وفاء للمرأة في عالم الرجل بكل مراحله؟!

"عبده الحامولي" يا عزيزتي يمثل حياة الفن بصخبه وعلاقاته المتعددة.. والبشر ليسوا جميعاً على السواء في نسقٍ حياتيّ واحد.. وحتى في الأطوار المختلفة من الحياة تتباين الأولويات.. ولن نبتعد عن شخص "عبده الحامولي" محور قصتنا، فحينما تقدم به العمر لم تكن على أولوياته المرأة كما كان الوضع في عنفوان الشباب بل أصبح أقصى مراده أن يعيش في ستر.. وعلى الرغم من هذا الرصيد الفني الواسع والممتد والقرب من أصحاب المكانة وذوي النفوذ وأرباب الحكم والسيادة إلا أنه لم يخطط للزمن وتقلباته ويحتاط للحاجة في أرذل العمر فيعد لها عدتها في ريعان الشباب وكان غير مقتنع بالقول المأثور "القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود".. فلما جاء اليوم الموعود وانطفاء أضواء الشهرة من حوله بلغت به درجة قسوة العوز أن لم يكن معه ثمن إيجار الفندق الذي يقيم فيه فتدخل لمساعدته صديقه "باسيل بيك عريان" وكان من كبار تجار السمك واستمر يدفع الإيجار عنه حتى ضاقت به الأحوال هو الآخر فتدخل الشيخ "سلامة حجازي" والشيخ "يوسف المنيلاوي" لمساعدة "الحامولي" الذي أصيب بالشلل في نهايات حياته حتى توفي 12 في مايو 1901 م .

السؤال التاسع عشر

في رحلتك المثيرة عبر أرشيف الصحافة المصرية.. ما أكثر الأعداد التي حملت لك مفارقات تاريخية طريفة ومدهشة من وجهة نظرك؟!

سأكتفي هنا بإيراد ثلاثة أمثلة من أرشيف الصحافة المصرية.. اثنان منهم كانا بمثابة تمهيد القدر لحركة الجيش عام 1952م..
المثال الأول: العدد 1444 من مجلة "المصور" في 13 يونيه 1952م (الموافق 20 رمضان) وقد حمل العدد صورتين للملك فاروق من تصوير استوديو "رياض شحاته".. الأولى وهو يقرأ الفاتحة على روح جده ساكن الجنان محمد علي باشا، والثانية للفريق حسين فريد بيك رئيس هيئة أركان الجيش وهو يقبل يد جلالة الملك.. في الصفحة المقابلة جاءت صورة لكبار المدعوين في حفلة سلاح المشاة وفي الصف الأول اللواء محمد نجيب باشا (خطأ طريف من المجلة وكان وقتها "بيك") وإلى جواره اللواء السيد طه بيك واللواء فؤاد صادق باشا.. وكان اللواء محمد نجيب بيك مدير سلاح المشاة الملكي قد دعا إلى حفلة ساهرة أقيمت على أرض الاتحاد الرياضي بسلاح المشاة للترفيه عن الجنود..
وكأنما الأقدار قد أبت وإلا وأن تجمع الرجل الأول في حركة الجيش القادمة مع مليكه في مواجهة على صفحات أعداد المجلة في رمضان الأخير بالعهد الملكي وكأنها تعد القراء لحدث كبير بعدها بشهر سيغير من وجه مصر بشكل كبير وحاسم..
المثال الثاني :من أرشيف مجلة "المصور" أيضاً ومن العدد 1446 في 27 يونيه 1952م أي قبل أقل من شهر على ثورة يوليو في نفس العام، وتعليق شديد الغرابة ولا يخلو من إسقاط له مغزى ولا يحتمل في ظني مصادفة.. التعليق جاء على النحو التالي "جدران عجوز متهدمة.. وسقف يهدد بالتنازل عن عرشه" وذلك أسفل صورة لطبيبة من داخل إحدى الوحدات الصحية المتهالكة والآيلة للسقوط بمنطقة السيدة زينب والطبيبة تصرف الدواء لعشرات الأيدي الممتدة من المرضى عبر النافذة واللافت في الصورة وجود صورة صغيرة معلقة وغير واضحة المعالم أعلى الطبيبة والمراجعين -في الغالب للملكة نازلي –

وأظن المجلة قد تعمدت عدم الوضوح هذا.. تاركة للقارئ الأريب فهم مغزى الصورة والتعليق.. الأغرب أن المجلة وفي العدد نفسه حملت أيضاً عنواناً لمقالها الافتتاحي بقلم "فكري أباظة" من كلمة واحدة "الجيش" وفيه يدعو إلى ضرورة زيادة ميزانية الجيش وتعداده إلى نصف مليون وقت السلم ومليون وقت الحرب، ورفع معنوياته بالسلاح والعتاد والذخيرة.. مختتماً المقال بقوله: "آمنوا أولاً بالجيش هو الإصلاح الجوهري الأكبر فإذا آمنتم بهذا وجدتم بلا شك السبيل".. هل كان ذلك من قبيل المصادفات القدرية؟ أم إعداداً وتهيئة للرأي العام عبر الغرف السرية والبوابات الخلفية للجيش أنّ أمراً جللاً سيقع وبطله هو الجيش لوضع حد للفضائح اللاصقة بالعرش وأولها فضائح الملكة "نازلي" وتزويجها لابنتها الأميرة "فتحية" من "رياض غالي" على غير إرادة "فاروق"؟..

المثال الثالث: من أرشيف مجلة المصور أيضاً والعدد 1376 في 23 فبراير 1951م حيث تصدر الغلاف والصفحات الأولى صور زفاف شاه إيران "محمد رضا بهلوي" على الإمبراطورة "ثريا" وسط احتفاء كبير ووصف كامل لحفل الزفاف والهدايا المقدمة من زعماء الدول بينما خصصت المجلة في نفس العدد الصفحة الثالثة عشر لتغطية فاعليات زيارة الأميرة "فوزية" مع الأميرات لمبرة محمد علي في طنطا..

بلا شك أننا أمام اتساع أفق كبير ورحابة صدر من النظام الملكي الذي ترك تغطية الأحداث للصحافة دون قيود ذلك أن "محمد رضا بهلوي" كان الزوج الأول للأميرة "فوزية "حتى وقع الطلاق في 17 نوفمبر 1948م لتتزوج بعده من العقيد "إسماعيل شيرين" في 28 مارس 1949م ومن باب أولى مراعاة حساسيات هذه المسألة والاختصار في النشر أو تجاهل الحدث.

نأتي لأمر طريف في تغطية المجلة لزيارة الأميرة "فوزية" لمبرة محمد علي بطنطا وهي أنّ المجلة لم تدخل في مسائل جادة فيما يتعلق بالزيارة التي بدت نوعاً من الفسحة والنزهة للأميرات، بل تحدثت عن إشادة الأميرة بأناقة الأثاث والستائر والمفروشات والتي اختارتها الأميرة "هان زاده" وطبعاً مخصصة لقاعة كبار الزوار وليس للمرضى المساكين كجدي وجدك وبدا أن المجلة تداعب الأميرة فوزية المعروف عنها جمال ملامحها مع وراثة الصرامة من

والدها الملك "فؤاد" فهي لا تبتسم إلا قليلاً.. فتقول المجلة: إنّ أحد القرويين قد هتف عندما أطلت الأميرة من إحدى الشرفات: "حلفتك بالنبي والسيد البدوي إنك تضحكي علشان الدنيا تضحك لنا" وفي الاستراحة قدم للأميرات مشروب عصير "برتقان بدمه" ظنوه في البداية "عصير طماطم" وكانوا فيه من الزاهدين..!

السؤال العشرون

تحدثت في كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" عن تواضع ثقافة الملك الدينية وأنه لا يعرف الفرق بين الطلاق الرجعي والبائن! والحقيقة أني لم أفهم مغزى هذه العبارة ودليلك على انطباقها على واقعة طلاق "فاروق" من "فريدة.."

سأوضح لك ما أرمي إليه من هذه العبارة وأظنك ستتفق معي في نهاية المطاف.. طبقاً لأحاديث "فاروق" فالرجل طلق زوجته الملكة "فريدة" بشكل لا رجعة فيه وعلى هذا ربى لحيته وفي ذلك يقول لصحيفة "ذا صنداي هيرلد" التي سجلت جملة حوارات معه بعد الثورة: "اخترت الطريقة الثانية للطلاق الإسلامي، والتي هي أكثر وقارًا، بدلًا من توقيع أوراق الطلاق أمام قاضٍ، الزوج يقول لزوجته: (أنتِ طالق، أنتِ طالق، أنتِ طالق). هذا لا يمكن أن يحدث دون الأسباب الحقيقية للطلاق، ولكن إذا كانت الأسباب موجودة، وتم إثباتها والاتفاق عليها، إذاً تصبح جملة الطلاق المكررة ثلاث مرات كحكم الإعدام، بعد المحاكمة، كلمة نهائية. في معتقدنا، هذه الطريقة من الطلاق نهائية وسيئة. هي تعني أن الرجل قد طلق زوجته أمام الله، وبناءً على ذلك، أصبحوا كالغرباء الذين لم يحبوا بعضهم من قبل. تستطيع أن تحتفظ بأي طفل حتى سن السابعة، ومن ثم يجب أن تعطيه للأب، وقانوننا ودِيننا لا يسمح بأي طريقة أخرى غير هذه.. عندما يتطلق رجل وامرأة بتلك الطريقة، لا يمكنهما أن يتزوجا بعضهما مجددًا، حتى وإن رغبوا في ذلك، حتى تتزوج المرأة برجل آخر وتتطلق منه، ولهذا اخترت هذه الطريقة للطلاق. أصبحت فريدة بذلك حرة للذهاب لمعجبها لترى إذا ما كان سيتزوجها. وأنا كنت حراً للبحث عن زوجة تريحني وتساعدني وتصبح أمًا لأولادي".

نأتي في المقابل لنجد رواية "لوتس عبد الكريم" التي رافقت "فريدة" في آخر خمس سنوات وأنّ "فريدة" قد عادت لعصمة "فاروق" حتى وفاته وأنّ "فريدة" أبقت هذا الأمر سراً لا يعلم به سوى صديقتها المقربة "لوتس عبد الكريم" وابنتها الكبرى الأميرة "فريال" لخشيتها من منعها من زيارة مصر وهذا يفسر كونها ظلت محتفظة بخاتم الملك ودبلة الزواج في إصبعها حتى وفاتها وذلك بحسب كتاب "*فريدة مصر أسرار ملكة* وسيرة فنانة" للوتس عبد الكريم وحوارها المنشور على بوابة الأهرام في 5-8-2021 م نقلاً عن نصف

الدنيا.. هذا يضعنا أيضاً في حيرة بالغة، ففريدة لم تتزوج طيلة حياتها سوى من "فاروق" وظلت على وفائها له وهي حقيقة مستقرة لا غبار عليها.. إذاً كيف عادت لفاروق لو كان طلاقها منه لا رجعة فيه؟! العقل يقول لو صحت رواية "لوتس عبد الكريم" ففاروق قد طلقها رجعياً، ولكن اختلط عليه الأمر ولم تكن ثقافته الدينية كما يبدو لترتفع إلى حتى الحد الأدنى من المعرفة..

هذا يقودنا إلى أمر آخر نناقشه في هذا المقام وهو تطويع الدين لخدمة الدعاية السياسية للحكام في مصر.. فنجد مسميات ارتبطت ببعض الحكام مثل:

-الملك "فؤاد" (ملجأ الإسلام والمسلمين وحمى العلم والفضيلة والدين) وهو اللقب الذي أطلقه "مصطفى صادق الرافعي" في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" 1928م في أعقاب تبني الملك "فؤاد" لإصدار المصحف الفؤادي أول طبعة قرآنية بالرسم العثماني والتي انتشرت في العالم الإسلامي عام 1924م وجاءت مواكبة لرغبة الملك فؤاد في تقلد منصب خليفة المسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية.

-الملك "فاروق" (الملك الصالح) وهو العنوان الذي اتخذه الشيخ "محمد مصطفى المراغي" في مقاله بمجلة "آخر ساعة" العدد 693 في 23 يناير 1938م ومن ثم أصبح اللقب الذي حمله مع الحملات الصحفية المصاحبة لزياراته لمساجد مصر وأداء صلاة الجمعة فيها.

-الرئيس "محمد نجيب" (الرئيس المؤمن) وهو لقب أهدته إليه الصحافة المصرية مع صوره الكثيرة أثناء أداء الصلاة في القصور الملكية أو ربما بتوجيه وموافقة منه ليضفي على العهد الجديد نفحات إيمانية ودينية تميزه عن العهد الملكي السابق الذي أصبح فجأة منبوذاً وعنواناً للفسق والمجون والانحلال ..

-الرئيس "جمال عبد الناصر" (الرئيس المؤمن) وهو اللقب الذي اختارته له مجلة الشبان المسلمين والصحفي إبراهيم سلام بعد شهر واحد من نكسة 1967م في محاولة لتجميل النظام وإبعاد النهج الشيوعي لنظام عبد الناصر عن الأذهان والذي اعتبر لدى الإسلاميين سبباً رئيساً في الهزيمة..

-الرئيس "محمد أنور السادات" (الرئيس المؤمن) وهو اللقب المفضل له مع إعلان دولة العلم والإيمان وقانون العيب!!

وهي مسميات كان الأفضل البعد عنها لأنها سيفٌ ذو حدين، ففي الوقت الذي تؤكد على هوية الدولة الدينية لكنها تضفي لوناً من القداسة على أصحابها مع

الوقت، فتداعب أفئدتهم أوصاف أخرى كالملهم والموحى إليه، وبدلاً من الشعور بالمسؤولية أمام الشعب الذي انتخب الحاكم واختاره.. يكون النفور من مجرد فكرة المحاسبة الأرضية والتعالي عليها وأنّ *إله* السماء فقط هو من يحاكم المألهين في الأرض..

تأمل بعض القضايا التاريخية يبرز سلبيات هذه المسميات *إذ يصبح معها الفصل بين العام والخاص غير ممكن* والإرادة الواحدة في شخص الحاكم هي التي تعلي من تطبيق القانون أو تتجاوز عن تنفيذه.. مثلاً قضية الصيدلي "صلاح يوسف عبد السيد الطحاوي" صاحب صيدلية بجوار منزل الرئيس السادات بالجيزة والذي قبض عليه لاتهامه بحيازة أدوية مخدرة وبيع أدوية مهربة وغير مسعرة في ١٥ يونيو ١٩٨١م (جناية رقم 2602 جنايات الدقي).. الطريف أن الرئيس "السادات" أصدر قراراً بالعفو الصحي عن الصيدلي المذكور وقد خرج مانشيت صحيفة الأهالي وعنوانه "السادات يعفو عن تجار المخدرات.."

في شهادة اللواء النبوي إسماعيل عن الحادثة والتي وردت في كتاب "النبوي إسماعيل وجذور منصة السادات" للأستاذ محمود فوزي يروي أن السادات تعامل مع القضية من منطق الجيرة! فالصيدلي جاره وزوجته أتت للسيدة "جيهان" تبكي وتستعطفها أنه مظلوم!

السؤال الواحد والعشرون

في المجموعة القصصية "في فلك الحكايات" وتحديداً قصة "عيون من الماضي" شككت في منطقية القصة الخاصة بالناظرة "دولت فهمي" وادعائها بإيعاز من منظمتها "اليد السوداء" أنها على علاقة غرامية بعبد القادر محمد شحاته عضو المنظمة الذي حاول اغتيال وزير الأشغال محمد شفيق باشا وذلك في محاولة لإنقاذه.. واعتبرت هذه التضحية في غير محلها فما السبب؟!

هذه القصة انفرد بذكرها الكاتب الكبير "مصطفى أمين" في كتابه "الكتاب الممنوع.. أسرار ثورة 1919".. والحقيقة أنني إذا رأيت رواية مصدرها الوحيد آل أمين تحسست زناد عقلي في التو واللحظة.. ذلك أن المتتبع لصحافة الأخوين مصطفى أمين وعلي أمين يعلم تمام العلم نهجهما في صحافة الإثارة وفبركة بعض المواضيع التي تثير شهية القارئ وفضوله.. هذه المدرسة الصحفية شكلت وعي الكثيرين وعبر عنها الصحفي الأمريكي (جون بوجارت John B. Bogart) رئيس تحرير صحيفة New York Sun بقوله: "ليس خبراً أن يعض الكلب رجلاً وإنما الخبر أن يعض الرجل كلباً" ومن أعماله ادعاء اكتشاف حضارة شديدة التقدم على القمر عبر تصريحات نسبها إلى الفلكي البريطاني "جون هرشل."

"آل أمين" سارا على الدرب ومن سار على الدرب وصل وأرشيف آخر ساعة والأخبار دليل دامغ لكن يعوزنا أيضاً شهادات المعاصرين حول هذا السلوك الصحفي المكيافيلي الغير محمود في وجهة نظري..

من شهادات المعاصرين ما رواه "غالي شكري" في كتابه "الأرشيف السري للثقافة المصرية" من أنّ الكاتب الكبير "سلامة موسى" وقبيل وفاته بفترة وجيزة دفع بكتابه "الصحافة حرفة ورسالة" لأخبار اليوم ليصدر ضمن كتابها الشهري وقبل مثول الكتاب للطبع توفي "سلامة موسى" في 4 أغسطس 1958م.. استغل الأخوان "مصطفى أمين" و"علي أمين" أنّ الموت قد غيّب صاحب الكتاب فضمناه ما ليس فيه وأضافا إليه عدة فصول دعائية لشخصهما وللترويج لدارهما مستغلين شهرة الكاتب الراحل وحملت الفصول السبعة

المضافة عناوين منها: (مصطفى أمين شخصية صحفية -على أمين شخصية صحفية -نشأة أخبار اليوم - ميزات لدار أخبار اليوم وغيرها).
في الكتاب المقدس "شَفَةُ الصِّدْقِ تَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ، وَلِسَانُ الْكَذِبِ إِنَّمَا هُوَ إِلَى طَرْفَةِ الْعَيْنِ. سفر الأمثال (12 :19)" وبالمناسبة اتساع حدقة العين من العلامات الدالة على التوتر في اتخاذ القرار والكذب.. وفي المثل الشعبي الدارج "الكذب مالوش رجلين" وهذا ما حدث حرفياً مع الأخوين.. إذ يشاء القدر أنّ "غالي شكري" كان قد اطلع على مسودة فصول الكتاب في نسخته الحقيقية في حياة صاحبه وهاله ما حدث من تلاعب في النسخة التي أصدرها الأخوان فسارع بإبلاغ الدكتور"رؤوف" الابن الأكبر لسلامة موسى وكان باحثاً بالمركز القومي للبحوث قبل تعيينه أستاذاً بجامعة الإسكندرية.. كما كتب "غالي شكري" مقالاً في جريدة "المساء" يشرح فيه التفاصيل.. وكانت فضيحة مدوية حاول "علي أمين" لملمتها بأن عرض مالاً على أسرة الكاتب الراحل مقابل التنازل عن القضية.. ولما أصروا على الرفض.. استغل "مصطفى أمين" و"على أمين" الظروف السياسية وأشاعا أن "رؤوف سلامة" و"غالي شكري" شيوعيين وأن افتعال قضية الكتاب يقف وراءَها الحزب الشيوعي المصري والذي كان أكثر أقطابه في سجون عبد الناصر.
مازلت أتذكر بداية معرفتي بمصطفى أمين.. كنت في المرحلة الإعدادية وكان مدرس اللغة العربية يطرب مسامعنا بنبوغ الأقدمين ضارباً المثل بالفتى "مصطفى أمين" الذي تمكن في سن الرابعة عشر من عمره أن يشارك الشاعر الكبير "علي الجارم" كتابه "النحو الواضح" السفر القيم الذي كان مقرراً على تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية في مطلع الثلاثينات.. وظللنا على هذه الخرافة دهراً وروجت لها "الويكيبيديا" أيضاً ومازالت.. والصحيح الذي اتضح لي من طبعات الكتاب القديمة والتي لم يكلف أحد نفسه عناء النظر فيها أن "مصطفى أمين" واضع الكتاب مع "الجارم" كان مفتشاً زميلاً له بوزارة المعارف وليس "مصطفى أمين" الصحفي بعد هذا الزمان بزمان.

السؤال الثاني والعشرون

في كتابك "نوستالجيا الواقع والأوهام" تحدثت أن "جمال عبد الناصر" اقترح "أحمد لطفي السيد" لرئاسة مصر والآخر رفض.. من أين استقت هذه الرواية ؟!

هذه الرواية أوردها الكاتب الكبير "مصطفى أمين" في العدد 1944 من مجلة المصور في 12 يناير 1962م تحت عنوان "قصة الصحفي الأول.. أول من رشح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية" وبحسب ما جاء في المجلة فقد التقى "مصطفى أمين" بأحمد لطفي السيد في فندق "سيسيل" بالإسكندرية في يونيه 1951م وأن الأخير تنبأ بثورة عسكرية تطيح بالملك وتحرر الشعب وهو ما حدث بعد ثلاثة عشر شهراً.. وفي شتاء 1954م ذهب رسول من عند البكباشي "جمال عبد الناصر" إلى أستاذ الجيل "أحمد لطفي السيد" في بيته لينقل إليه عرضاً من "عبد الناصر" رئيس مجلس قيادة الثورة لتولي منصب رئيس الجمهورية وأن "جمال عبد الناصر" قد أقنع جميع أعضاء مجلس الثورة بهذا الرأي.. لكن "لطفي السيد" أطرق ملياً وبعد لحظات من السكوت أجاب الرسول بأن رئيس الجمهورية يجب أن يكون رئيس الثوار لأن نجاح الثورة مرهون بقائدها.

وبحسب رواية "مصطفى أمين" قاوم "عبد الناصر" هذا الرأي وتغلب إصرار "لطفي السيد" في النهاية ورضخ "عبد الناصر" لقرار مجلس الثورة ترشيحه بالإجماع رئيساً للجمهورية وهي الرواية التي لا تخلو من مبالغة تليق بقائد الثورة والذي لابد وأن يكون زاهداً في الحكم والرأي العام من يطالبه بالترشح على غير رغبته ليقنع في النهاية برأي الجماهير العريضة وينزل على إرادتهم! وعلينا قبول أن "عبد الناصر" الذي أطاح بنجيب بحثاً عن الاستئثار بالسلطة كان زاهداً فيها!

في ظني أن غاية ما أراد "عبد الناصر" من ترشيح "لطفي السيد" الطاعن في السن والذي تجاوز الثمانين من عمره هو امتصاص ما تبقى من معارضة لإلغاء الأحزاب وتجميد الحياة النيابية والدستورية والالتفاف على الحركات الداعية لعودة الديموقراطية بأننا أوفينا بالوعد وأتينا بأبي الليبرالية نفسها، ولكن لنحكم من خلاله بليبراليتنا لا ليبراليته إذ لم يكن تراجع النخبة العسكرية عن السلطة

والتراجع إلى الظل ممكناً تحت أي ظرف، كما أن ترشيح "لطفي السيد" أول المطبعين مع إسرائيل من المثقفين العرب لهذا المنصب الخطير يعطي رسالة طمأنة للغرب والأمريكان تحديداً بنية الثورة السلام مع إسرائيل..

قصة هذا الترشيح لم يقتصر ذكرها على "مصطفى أمين" بل وردت أيضاً في كتاب "محمد حسنين هيكل يتذكر: عبد الناصر والمثقفون والثقافة ليوسف القعيد .."

السؤال الثالث والعشرون

أنا من متابعي صفحة الحوادث بالصحف طوال عمري لكني ألاحظ كثرة قضايا التحرش هذه الآونة.. هل في تراث الأرشيف الصحفي المصري قضايا مثل هذه في الماضي؟!

الماضي يغص بهذه الحوادث التي لا حصر لها.. لذلك سأختار لك أغرب هذا النوع من القضايا.. ففي العدد 1400 من مجلة المصور في 10 أغسطس 1951م -عدد شهر عسل الملك فاروق مع زوجته الثانية الملكة ناريمان.. حدث أن تعرضت السيدة "عنايات محمد توفيق" حرم موظف كبير في وزارة التموين لمعاكسة من أحد الشباب هي وشقيقتها عند ميدان العتبة الخضراء (محمد علي) حيث كانتا في طريقهما من بيت السيدة "عنايات" في السيدة زينب إلى قريبة لهما في الزمالك..
غادرت السيدة وشقيقتها الترام هرباً من معاكسات الشاب واستقلتا تراماً آخر فإذا به يستمر في مضايقتهما حتى فاض الكيل بعنايات فما كان منها إلا أن صفعته عدة صفعات وقبضت عليه وصممت على اقتياده إلى قسم البوليس لينال جزاءه.. هنا تقدم جندي شاب من الجيش عارضاً أن يقوم بهذه المهمة نيابة عن السيدة وما إن سلمته له حتى تركه ليطلق ساقيه للريح ويفر هارباً..
اندهشت السيدة من فعلة جندي الجيش، فقبضت عليه فحاول مقاومتها وضربها وانضم إليه زميلان من الجيش وعاوناه في ضرب السيدة.. فأطلقت عليهم المجلة تهكماً "الفرسان الثلاثة.. "
كان الوضع متفاقماً مما استدعى تدخل أحد رجال البوليس فحاول إنقاذ السيدة فناله من ضرب الفرسان الثلاثة جانباً وهنا تدخل رجل بوليس آخر لينقذ زميله والسيدة فاتسعت دائرة الضرب المتبادل وفي النهاية نجح رجلا البوليس والسيدة في اقتياد اثنين من الفرسان الثلاثة لقسم البوليس فيما فر ثالثهما والذي تفتق ذهنه لحيلة ماكرة في سبيل إنقاذ زميليه وأيضاً للفرار من محضر بوليس لا مفر أنه واقع فأسرع إلى زملائه من الجنود بالميدان وكانوا كثراً، لأنه يوم الجمعة يوم النزهة الخاص بهم وطلب منهم الغوث مدعياً أن رجال البوليس قتلوا جندياً من جنود الجيش فانطلق نفر منهم غاضبين، وقد استبدت حمية الغضب بهم إلى قسم الموسكي فهاجموه وأرادوا اقتحامه للانتقام.. طبعاً هذا الشغب بين السلطات

أفضى إلى تغلغل اللصوص أثناء المشاجرة بين البوليس والجيش وسجلت العديد من السرقات ومن بينها سرقة ساعة يد شقيقة السيدة وربطة فيها قماش فستان كما سرقت حافظة نقود رجل البوليس "عبد الله صديق" الذي دافع عن السيدة وفيها خمسة جنيهات نفقات بيته طيلة الشهر.. كما سرقت الساعة المعدنية النشيطة طيلة خمسة وثلاثين عاماً كانت فيهم رفيقة درب رجل البوليس الثاني "زكريا حسن حمزة" علاوة على عشرة جنيهات هي كل ثروة الرجل وما يملكه ..

السؤال الرابع والعشرون

"سامحك الله أخي محمد" لقد خشيت أن أضع كتابك "منافح الأيك في مساجلات النخب" في مكتبتي المنزلية بعد أن انتهيت منه.. أصارحك أني خشيت أن تطلع زوجتي عما نقلته عن المرأة المصرية في الفقه.. هي قليلة القراءة.. ولكن ربما تقع "الطوبة في المعطوبة" وهي طيبة ولكن عصبية جداً وقد أفقد فنجان القهوة الذي تصنعه لي عقاباً لي على اقتناء مثل هذه الكتب..

بداية الخصام أحياناً مفيد إن كنت من المسرفين في شرب القهوة مثلي وأنا من مرضى ضغط الدم المرتفع إذ تمثل القهوة في هذه الحالة خطورة بالغة وقد تؤدي للوفاة لا سمح الله لذا كن معتدلاً.. هنيئاً لك يا عزيزي بفنجان واحد من القهوة يوميّ تصنعه لك زوجتك حفظها الله وبارك في عمركما..
إذ أظهرت دراسة حديثة أن معتادي شرب القهوة بانتظام هم في أغلب الأحيان أقل عرضة قليلاً لتسارع نظم القلب غير الطبيعي، بما في ذلك الرجفان الأذيني و/أو الرفرفة الأذينية وتسارع القلب فوق البطيني مقارنة بالذين لا يتناولون القهوة (المصدر MSD *Manuals*) لكن هذا لا يعني وصف القهوة للوقاية من خطر عدم انتظام ضربات القلب ذلك أن هذا النوع من الدراسات لا يقدم تفسيرات قاطعة تتخذ طريقها كحقائق علمية ثابتة..
نمضي إلى صلب السؤال.. من الأبحاث المصرية الطريفة ما نشرته مجلة "آخر ساعة" في عددها 2104 في 19 فبراير 1975م عن بحث بعنوان "عيوب المرأة المصرية" تعده "وئام علي السيد" للحصول على درجة الماجستير في الخدمة الاجتماعية" وبه سترد على عيوب بعض السيدات المصريات ومدى تأثير التربية القديمة والأفكار البالية عليهن وستختتم بحثها بطرق العلاج المختلفة لهذه الرواسب الاجتماعية".. والحقيقة أن عيوب المرأة المصرية هي عيوب عامة لدى المرأة بشكل عام وفي طليعتها "النكد" وبحسب دراسة حديثة للجمعية الأمريكية للقلب فالمرأة النكدية هي الأطول عمراً لحرصها على التعبير عما يزعجها ويجيش في صدرها باستمرار فتحتفظ بصحتها بعكس المرأة الكتومة التي يزيد تعرضها للموت بنسبة أربع مرات مقارنة بالنكدية (المصدر بوابة اليوم السابع في 4 أغسطس 2018م).. الخصلة التي تأتي بعدها كثرة

الرغي والثرثرة وهي بمثابة تدريبٍ يومياً لعضلات اللسان لدى المرأة المصرية التي لا تنفك عن الحديث الفضولي بالساعات الطويلة في شؤون القيل والقال بالأخص.. وفي دراسة حديثة بجامعة "نيويورك" على سبعمائة من الشباب أغلبهم فتيات أشار لها موقع "ديلى ميل" خلصت أن الثرثرة والرغي أفضل وسيلة للتنفيس عن الضغط العصبي لدى المرأة وتجديد النشاط والحيوية والتعبير عن الشخصية.

أما افتنان بعض السيدات بالسمنة خاصة المصريات وهي ظاهرة كثير ما شاهدتها بعملي كصيدلي وبحث الفتيات عن أقراص "بريدنيزولون" Prednisoloneو"هيدروكورتيزون Hydrocortisone "و "السيبروهيبتادين Cyproheptadine " لزيادة وزنهن طلباً للزواج إذ يفضل الرجل الشرقي عموماً السيدات الممتلئات لتتهادى وتختال في مشيتها أمامه كالتختروان (تشبيه ظريف سمعته من صديق يمني ويعني مشية المحمل أو المحفة التي تحمل بالأعمدة على الجمال والبغال).. عاصرت صيدلانياً زميلاً قضى في الخليج سبعة أعوام متصلة دون إجازات مطلقاً وكان حريصاً بدرجة كبيرة.. أكلاته الثابتة لا تتعدى التميس والجبن والعسل والحلو بطيخ.. يحسبها بدقة متناهية ومع أول إجازة له في مصر وكانت لمدة شهر واحد حمل معه عباءة بحجم معين ومقاس معين لزوجته المستقبلية التي لم يخطبها بعد ولازالت محض أحلام وحينما سألته عن المغزى من شراء العباءة قبل تعيين الزوجة من الأساس.. فتبسّم ضاحكاً: "تقصد أني اشتريت العربة قبل أن أستقر على الفرسة العفية التي تنطلق بها".. وتعالى صوت ضحكاته واستطرد قائلاً: "معي العباءة.. هي المواصفات القياسية التي أطلبها.. وجدت سعيدة الحظ التي تملأ العباءة.. كان خيراً.. لم أجدها سأعيد الكرة مرات ومرات".. الطريف أنه وفي ظرف شهر خطب ثم فسخ خطوبته ثم خطب مرة أخرى وتزوج! عادة ما تجد المرأة لهذه الأسباب محافظة على سمنتها لا تنقص جراماً واحداً -وإن كان منشأ السمنة الأدوية أحياناً لضمان السرعة- فالحفاظ عليها من أسهل ما يكون عبر المحاشي والفراخ العتاقي والشامورت.. لازلت أتذكر رحلة إلى "رأس البر" مع صديق لي وكانت في "باص" اقتصادي مشحون بعائلات مصرية آتية للمصيف محملة بحلل المحشي المكدسة!

ما يعيب المرأة أيضاً الاسترجال في بعض الأحيان من قبيل الهوس بالطبيعة الذكورية وهو يناهض أنوثة المرأة ورقتها. جاء في العدد 938 من مجلة الاثنين

والدنيا في 2 يونيو 1952م وخبر تحت عنوان "حسام الدين يقع في قبضة البوليس"! والتفاصيل أن امرأة تدعى "سعدية إبراهيم" انتحلت عشرين اسماً رجالياً منهم "حسام الدين محمد " و"فرج عبد البديع" وعشرة أسماء حريمي من بينها "سعدية عبد العزيز أبو سيف" وهي من مواليد "سيدي بشر" بالإسكندرية وقد تزوجت من أحد الأشخاص بالقاهرة وأقامت في حي "الجيوشي" ومع طلاقها من زوجها ضاعت في خضم الحياة حتى قبض عليها البوليس في إحدى الحوادث وحكم عليها بالحبس أربعة شهور ووضعها تحت مراقبة البوليس لمدة ستة شهور فلما انقضت مدة السجن دخلت ملجأ النسوة العجزة بالسيوفية مع استمرار المراقبة لكنها استطاعت الهروب وراحت تتنكر في ملابس الرجال وتمارس سرقة المنازل تحت أسماء مستعارة ومع تعدد الحوادث ومنها سيدة إيطالية تقدمت ببلاغ لقسم عابدين من أنها وهي تسير في الشارع استوقفها شاب صغير السن يدعى "حسام الدين محمد حسن" يبحث عن العمل كخادم فألحقته بالعمل لديها وبعد ثلاثة أيام اكتشفت سرقة مبلغ ثلاثين جنيهاً وسوار من الذهب قيمته خمسين جنيهاً. كما تقدم أحد التجار ببلاغ مماثل إلى إدارة مباحث جنوب القاهرة من أن خادماً يدعى "فرج عبد البديع" أمضى لديه ثلاثة عشر يوماً وهرب بعد أن سرق من الدار ما خف وزنه وغلا ثمنه وبعد أسبوع من الحادثين.. تقدمت سيدة عجوز ببلاغ جديد بنفس الأوصاف جبهة عريضة بارزة بها آثار التحام بسيط وحواجب مفتوحة.. أذاعت الحكمدارية نشرة بالأوصاف إلى أن تم القبض على شاب بنفس الأوصاف يعمل عند قصاب (جزار) بدائرة الدرب الأحمر ليقود استجوابه إلى كشف هذه الحقائق المثيرة وأن الشاب الخادم اللص في حقيقته هو "سعدية" الهاربة من المراقبة والسرقة!

هذا ينقلنا للمرأة المسترجلة التواقة لمظهر الرجل والراغبات في التحول الجنسي ونبتدر حديثنا بواقعة طريفة وردت في جريدة "البلاغ" الأسبوعي العدد 22 في 22 أبريل 1927م حيث كتب "طه عبد الحميد الوكيل" بوزارة الأوقاف نقلاً عن جريدة "وقت" التركية بعددها في 23 مارس 1927م أن فتاة تدعى "حسيبة هانم" شعرت "بعلائم الرجولة" مما دفعها لدخول المستشفى لتجري عمليتين في بلدة "باليكسر" الأولى لإزالة التشوه بعضو التناسل والثانية لتحويل مجرى البول للعضو وخرجت من المستشفى بعد عشرين يوماً من العملية مرتدية ملابس الرجال وعليها أمارات الشباب وأصبحت "حكمت بيك" عريض الجبهة

وصاحب عينين نافذتين في ذكاء وإرادة وقد عزم في همة على إتمام دراسته بالأستانة ليكون جندياً أو طبيباً حيث قصد دار الحكومة وقابل الحاكم ممتاز بيك ومدير المعارف.

المرأة المصرية أكثر ما يميزها "قوتها" وفي هذا الطرح سأسوق بعضاً من الأوراق التاريخية المتداولة على الصفحات الفيسبوكية المهتمة بالتراث (دون توثيق ومن باب الطرافة) ومنها مطالبة الست خديجة ابنة محمد بن محمد عرف والدها بالبدور (الأسماء غير واضحة بدقة) لزوجها حسام الدين القاضي(ابن القاضي بدر الدين) ابن الشيخ أبو السعود العدوي القادري في يوم السبت (المبارك) 7 رجب (الفرد الأصب أي "يصب فيه الرحمة"، الأصم أي "يحرم فيه القتال") سنة 934هجرية (بين عامي 1527و1528م) لباقي صداقها (مهرها) والذي دفع بعضه وأجل باقيه وأمام القاضي طلبت "مئتي نصف فضة" مؤجل الصداق و"خمسة وخمسين نص فضة" كلفة كسوة عام ونصف مستحقة عليه.. ادعى الزوج أمام القاضى أنه أوفاها مبلغ الكسوة.. أنكرت الزوجة تلقيها المبلغ وحلفت وطالبت بحبسه وهو ما قد كان.. ذلك أن أداء الصداق للزوجة فريضة واجبة لقوله تعالى في سورة النساء: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (4))..

يتضح من الورقة التاريخية أنّ غرض الزوجة الرئيسيّ لم يكن المال في حد ذاته بقدر ما كان اصطناع ورقة ضغط تطوع بها زوجها وترغمه للنزول على شروطها كاملة وقبولها مقابل الإفراج عنه والعودة إليه.. وكانت هذه الشروط أنه لو اعتدى عليها بالضرب المبرح وظهر أثره على جسمها أو تركها بلا نفقة أو سافر لمدة شهر أو بات بعيداً عنها ليلة واحدة وهو مقيم بالقاهرة تكون طالقاً منه.. فقبل الزوج مرغماً إذ لا سبيل آخر سوى القبول وخرجا معاً من المحكمة.

الورقة التاريخية الثانية أكثر طرافة وتعود إلى يوم الخميس 12 رمضان عام 1307 هجرية (بين عامي 1889م و1890 م) وفيها يقر ويعترف ويشهد على نفسه وهو سليم العقل وكامل الحواس المعتبرة "المكرم الحاج حسن بن المرحوم أحمد بن المرحوم حسن الشرى" أنه لا يملك شيئاً في المنقولات الموجودة بسكنه الكائن بدرب المهابيل (حي شعبي يتبع قسم عابدين إدرايا وجغرافياً أقرب لقسم الموسكي) وأن جميعها من فراش ونحاس ومصاغ ونقود وخلافه الكثير منها والقليل ملك زوجته" وردة بنت علي" وكريمته البنت البالغة "زينب" دون شريك لهما مؤكداً أنه لا يملك من حطام الدنيا إلا ملبوس بدنه البالي لا غير..

مشهداً على ذلك أربعة شهود (محمد محمد الأنبابي وخليل إبراهيم داود وعلي مصطفى الأنبابي وغنيم محمد) ومذيلة بخاتمه.. هل كانت قوة الزوجة حاسمة لمصير الميراث من بعد الزوج تأميناً لها ولابنتها أم كانت مبادرة من الزوج لحفظ حق زوجته وابنته وألا ينازعهما أحد بعد رحيله؟!! ..

على أية حال يجوز لصاحب المال أن يهب جميع ماله أو بعضه لأبنائه وزوجته شريطة العدل في الهبة بين الأبناء وألا تكون بنية حرمان بقية الورثة من الميراث وتستلزم أيضاً أن يقبضها الموهوب لهم في حياة الواهب فإذا مات الواهب قبل أن يقبض الموهوب له هبته تصير مالاً يوزع بين الورثة بالضوابط الشرعية.

السؤال الخامس والعشرون

في كتابك "منافح الأيك في مساجلات النخب".. تحدثت عن أن حلاق الخديوي "عباس حلمي الثاني" كان يونانياً وحلاق الملك "فؤاد" إيطالياً.. فأين العنصر المصري والعربي من هذه المهنة المتأصلة في مصر من بلاط الأسرة العلوية الحاكمة ؟!

بمراجعة بعض الأوراق التاريخية على سبيل الاستئناس برز لي اسم "محمد آغا الزعفراني ابن المرحوم حسن الزعفراني ابن عبد الله" المعروف هو "ببربر باشا سعادة إسماعيل باشا خديوي مصر". وبربر باشا أو باشي أي كبير حلاقي الخديوي إسماعيل والمتوفي في 16 ربيع الآخر 1297 هجرية (مارس 1880م تقريباً).. لا يعرف على وجه التحديد الموطن الأصلي له ولكن ربما كان حمله ووالده للقب "الزعفراني" إشارة لأصوله العربية..
لا يفوتنا في هذا المقام أن نتحدث عن الورقة التاريخية التي احتوت اسمه وهي إعلام شرعي بتركته لصالح زوجته "رحمة هانم بنت المرحوم عبد الله الشامي ابن مصطفى (المقيمة بالدرب الجديد بقسم السيدة زينب) "وأولاده الثلاثة" علي وفاطمة القاصران من زوجته الحالية والست زينب البالغة العاقلة "المرزوقة له" من زوجته التي توفيت في حياته المرحومة خديجة بنت المرحوم محمد آغا العنتبلي.."
القضية التي تضمنتها الورقة التاريخية شديدة الطرافة حيث أقامت الست "رحمة" دعوى بوصفها وصية على القصر مطالبة بضم دين قدره "ستة عشر قرشاً صاغاً مصرياً فضية" اقترضه المدعو "محمد أفندي عنبر آغا معتوق المرحوم مصطفى آغا شاطر زاده بدائرة سعادة داود باشا يكن (مقيم بشارع المارداني بقسم الدرب الأحمر) "من زوجها قبل وفاته باعتباره ميراثاً من بعده لزوجته المدعية وأولاده الثلاثة توزع كالآتي: (قرشان للزوجة -سبعة قروش للصبي- سبعة قروش للبنتين).. وكان المدعى عليه قد عارض وصايتها فاستشهدت كلاً من "ريحان آغا عباس (معتوق عباس باشا يكن ومقيم في سراي القصر العالي بمصر)" والحاج "سرور آغا الأسمر (معتوق مصطفى آغا

قراشولي مقيم بمنزل الست خانندە هانم بحارة حلاوات قسم الدرب الأحمر)" على أن الزوج أقامها وصياً مختاراً من قبله على تركته فقضت المحكمة في النهاية لصالحها..

السؤال السادس والعشرون

هل الضابط "الرشيدي" الذي تحدثت عنه في كتابك "نزهة الألباء في مطارحات القراء" هو نفسه الضابط الذي دأبت الصحف المصرية في الأربعينيات في تأييد حقه المسلوب بواسطة "سبنكس باشا" آخر سردار إنجليزي للجيش المصري.. ولم يتم تقدير دوره الوطني.. ودارت مداولات طويلة بين وزارتي الدفاع والمالية لرفع معاشه من أربعة جنيهات إلى أربعة عشر جنيهاً لم تسفر عن شيء أو إعادته للخدمة.. أظن أن إحدى الصحف المصرية وصفت ما حدث له بجزاء سنمار على ما أتذكر؟!

لقد حدث لديك خلط يا عزيزي.. فالضابط الذي تقصده بحديثك هو الملازم أول "عبد الرحمن الشهيدي" والذي أحيل على المعاش وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره بسبب بيان نشره في جريدة الأهرام في 23 أكتوبر 1919م يدعو زملائه للتضامن في مقاطعة لجنة ملنر (لجنة تشكلت من قبل بريطانيا في 22 سبتمبر 1919م للوقوف على أسباب ثورة 1919م برئاسة الفريد ملنر وزير المستعمرات) ونظراً لأن النشر محظور في قوانين الجيش فقد أمر "سبنكس باشا" آخر سردار إنجليزي للجيش المصري بإحالته للاستيداع مؤشراً على ملفه بكلمة " Dangerous أي خطير" والتي كانت بمثابة تيمة "وقف الحال" للرجل الذي ظل قرابة العشرين عاماً في الاستيداع من عام 1919م وحتى عام 1936م..

جاء تعيين "سبنكس باشا" في منصبه بعد اغتيال "السير لي ستاك" سردار الجيش المصري والحاكم العام للسودان ولما كان حادث مقتل السردار قد أفضي إلى انسحاب الجيش المصري من السودان فلم يعد هناك داع إلى تعيين إنجليزي يجمع المنصبين مرة أخرى وسعى رئيس الوزراء "أحمد زيور باشا" في تعيين سردار مصريّ للجيش المصري بعد اقتصار عناصره على المصريين لكن هذا السعي باء بالفشل في ظل تحكم المحتل البريطاني والذي أتى بسبنكس باشا ..ولما وقعت المعاهدة المصرية البريطانية عام 1936م والتي منحت مصر استقلالاً جزئياً تم تعيين عزيز باشا المصري في منصب مفتش عام الجيش خلفاً لسبنكس باشا وبالتالي زالت العقبة التي نغصت على "عبد الرحمن الشهيدي" أحلامه وجعلته وأسرته في فقر وعوز بمعاش هزيل أربعة جنيهات وعاوده

الأمل من جديد في رفع معاشه فلجأ للفريق "علي فهمي" وزير الدفاع في وزارة الوفد (وزارة مصطفى النحاس باشا الثانية) عام 1937م ففحص ملفه وتيقن أن أسباب استيداعه كانت انتقاماً منه لنزعته الوطنية فرفع لوزارة المالية بشأن تحسين معاشه ورفعه إلى أربعة عشر جنيهاً.. لكن رد وزارة المالية في 15 يوليو 1937م جاء مخيباً للآمال بعبارة مقتضبة "لا نوافق" ..

أعاد الرجل الكرة فتوجه لحسن صادق باشا وزير الدفاع (في وزارة حسين سري باشا الأولى والثانية) والواضح أن قرار عدم عودته للخدمة كان قراراً نهائياً لا رجعة فيه والجهود تنصب في إقناع وزارة المالية بمنحه زيادة استثنائية فقط لا غير..

رفع الوزير خطاباً لوزارة المالية في 24 أبريل 1941م مشفوعاً ببعض الإيضاحات والدفوع والتبريرات لاستحقاق الرجل هذا المعاش الاستثنائي ذلك أن الاستيداع لم يكن "لأسباب تمس الشرف" بل كان لأخطاء دفعه إليها "نزق الشباب" ظناً منه أن اشتغاله بالسياسة يخدم وطنه وقد ناله من "الضرر المادي والأدبي" طوال فترة الاستيداع "القصاص الكافي".. جاء رد وزارة المالية في 10 يوليو 1941م مبدياً دهشته فإذا كانت وزارة الدفاع تلتمس له العذر في نشاطه السابق فلا مانع مبدئياً من إعادته للخدمة ورفع أمره لمجلس الوزراء لتصحيح حالته..

والواضح أن هذه الوزارة والوزارات المتعاقبة بعدها (النحاس باشا - أحمد ماهر باشا - النقراشي باشا - إسماعيل صدقي باشا - النقراشي باشا) كان لديها توجس من مسألة إعادته للخدمة وهو ما يبدو جلياً في استمرار الوضع على ما هو عليه حتى كتبت عنه مجلة المصور في عددها 1225 في 2 أبريل 1948م تحقيقاً بعنوان "ضابط مصري يكشف ثمن الوطنية أربعة جنيهات" واصفة ما جوزي به بجزاء "سنمار"..

ليس بالضرورة أن يأتي جزاء سنمار من الحكومة بل كثيراً ما يأتي من الشعب أيضاً.. فمثلاً الضابط الباسل الصاغ "عبد المجيد شريف" والذي حمل سعد زغلول باشا وهو مضرج في دمائه وتلونت ملابسه بهذا الدم عند محاولة اغتياله الفاشلة في محطة العاصمة وذلك في 12 يوليو عام 1924م على يد طالب الطب بألمانيا "عبد الخالق عبد اللطيف" والطريف حول هذه الحادثة أن المسدس أداة الجريمة اختفى واتهم بعض شهود العيان الضابط الإنجليزي «انجرام بيك » وكيل حكمدار العاصمة أنه أخفاه في جيبه فيما دفع الأخير التهمة عن نفسه بأن

منشته السوداء تحطمت أثناء القبض على الجاني ووضعها في جيبه فاختلط المشهد على الشهود.. أوقف الملك فؤاد مراسم الاحتفالات بعيد الأضحى حيث تزامن مع الحادث وتوجهت أصابع الاتهام صوب مسؤولية الحزب الوطني ومن خلفه الخديوي السابق "عباس حلمي الثاني" حسبما جاء على لسان الجاني في البداية من انتمائه للحزب ورفضه رغبة "سعد" في استمرار المفاوضات ووصف سعد الإنجليز بالخصوم "الشرفاء المعقولون". وأسدل الستار على الحادث بإيداع الجاني مستشفى الأمراض العقلية في النهاية بعدما ثبت من الكشف الطبي عليه أعراض الجنون..

نعود لعبد المجيد شريف والذي شغل منصب مساعد حكمدار مديرية الدقهلية.. تصور أن هذا الرجل الذي أدى خدمة جليلة في إنقاذ زعيم الأمة يلقى مصرعه في النهاية ضرباً بالنبابيت في 16 مايو 1931م وهو يحاول فض تظاهرة شغب من أهالي قرية "دقادوس" حاولوا فيها الاعتداء على لجنة الانتخابات وبينما هو يؤدي دوره وقع في أيديهم وهو أعزل من السلاح فقتلوه بهذا الشكل الهمجي وشيعت جنازته رسمياً بعدها بيومين وصرفت الحكومة إعانة قدرها ثلاثة آلاف جنيه وتكفلت بتعليم نجليه بحسب ما جاء في العدد 850 من مجلة "اللطائف المصورة" في 25 مايو 1931م.

السؤال السابع والعشرون

هل احتلت فترة حكم "صلاح الدين الأيوبي" قسطاً من اهتمام الباحثين في الفترة الملكية أم اقتصر إحياء هذه السيرة على الفن لخدمة الأغراض السياسية القومية والعروبية والإسلامية لبعض النظم؟

بالطبع أخذت هذه السيرة نصيباً وافراً من الاهتمام والدليل أن من أوائل رسائل الدكتوراة بالجامعة المصرية: "حياة صلاح الدين الأيوبي" والتي قدمها "أحمد بيلي" أمين المكتبة بمدرسة الهندسة الملكية للجامعة المصرية ونوقشت بين يدي الجمهور في 29 أبريل 1920م ونال بها الباحث المؤلف شهادة العالمية ولقب "دكتور في الآداب" في نفس العام وقد قدم لها عندما صدرت ككتاب عن مطبعة السعادة الدكتور طه حسين..

الجميل في هذه الرسالة ما جاء في مقدمة الباحث "أحمد بيلي" من شعوره بالامتنان تجاه أستاذ التاريخ بمدرسة المعلمين الخديوية أو السلطانية حضرة صاحب العزة "أحمد بيك صالح" الذي حببه في دراسة التاريخ وكان يسهب في الشرح ويختصر في المذكرات مما جعله ينتسب للجامعة المصرية عام 1915م لدراسته بشكل عميق.. هذا المشهد نفتقده اليوم في العلاقة بين المعلم والطالب فلا المعلم يحمل في جعبته أكثر مما في كتاب المدرسة ولا الطالب يريد أن يتعرف على شيء أبعد مما يؤهله لنيل درجة اجتياز الامتحان آخر العام.. وبين هذا وذاك ضاع الشغف بالتاريخ.. ولعلّ أجمل ما قيل في أثر التاريخ ودوره ما جاء في مقدمة الدكتور طه حسين للكتاب حيث يقول: "إنّ الأمة الحية حقاً لا تحيا بحرصها على الحاضر وتهالكها عليه وإنما ترغب في تغييره وأن تستبدل به خيراً منه وليس سبيلها في ذلك أن تكلف بالجديد وحده كلفاً لا حد له وإنما سبيلها المعقولة أن تكلف بهذا الجديد وأن تستمد من القديم قوتها على تحصيله والفوز بالصالح منه."

ولأن الشيء بالشيء يذكر.. وحتى نتمرد على ظاهرتي "الاحتكار الثقافي" و"الاختزال المعلوماتي" كلما أطل السؤال حول من أول من حصل على الدكتوراه من الخارج؟ والإجابة دائماً وأبداً وفوقاً وتحتاً ويميناً ويساراً: الدكتور طه حسين.. لذا سأسلط الضوء على أمثلة أخرى من المصريين الذي كانوا من أوائل الحاصلين على شهادة الدكتوراه من الخارج ولم يسلط عليهم الضوء..

النموذج الأول: الشيخ "حامد والي" أول مصري يحصل على درجة الدكتوراه في الطب من ألمانيا من جامعة برلين عام 1910م بحسب مجلة "فوباخ".. وبحسب كتاب "تطور الصحافة العربية في مصر: إطار لملامح المجتمع وصورة العصر" لأنور الجندي فالشيخ "حامد والي" كان أستاذ العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية في برلين والواضح أنه كان شغوفاً بالطب فأمضى امتحان الدكتوراه في علوم الطب بدرجة فائقة وعاد كبيراً للأطباء بوزارة المعارف والطريف أن شقيقه الدكتور أحمد والى سار على نهج أخيه في دراسة الطب فعاد من برلين طبيباً أيضاً وذلك بحسب أرشيف مجلة الرسالة (أمثلة مميزة من الماضي ل..career shift)

النموذج الثاني: "منصور فهمي" والذي حصل على الدكتوراه من السوربون بفرنسا في الأول من ديسمبر عام 1913م وكان عنوان رسالته "وضع المرأة في تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها أو حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها "تحت إشراف "ليفي بريل".. مشكلة الرسالة أنها تأثرت بالمفاهيم الاستشراقية المغالطة لروح الإسلام والمناقضة لسماحة تعاليمه تجاه المرأة.. فخلصت الرسالة التي استخدمت ألفاظ المستشرقين مثل "المحمدية " بدلاً من "الإسلام " إلى أن المرأة العربية قد تدهور وضعها بعد مجيء الإسلام.. ولأنها كانت من بواكير الرسائل في الجامعة المصرية الناشئة فلم تمر مرور الكرام فألغت الجامعة تعيين صاحبها كأستاذ بالجامعة.. كما اختبأ "منصور فهمي" في قريته سبع سنوات خوفاً على حياته بعد اتهامه بالإلحاد.. حتى قامت ثورة 1919م وعاد للجامعة بنظام المكافأة بعدها بعام معتذراً وتائباً وكان حريصاً جداً على وظيفته وعن قصة توبته كما جاء في مجلة "لواء الإسلام" شوال سنة 1378هـ (1959 م عام وفاته) وأرشيف مجلة "الدعوة" 1983 م: "لقيتُ المرحوم الشيخ حسونة النووي حين زرته في منـزله، فوجدتُ شيخاً وقدراً يملأُ القلب بمهابته وتقواه، وكنتُ أسمع الكثير عن شجاعته وهمته، واستهانته بشؤون الدنيا، فلما قُدِّمتُ إليه، قال لي: أأنت الذي يُقالُ عنك: إنك ملحد! فقلتُ: نعم يا مولاي، فربت على كتفي، وقال لي: اقرأ القرآن، اقرأ البخاري إن لم تكن قرأته، فوعدتُ الشيخ الوقور بذلك، ولما خرجتُ استحييتُ ألا أفي بعهدي، فعكفتُ على قراءة البخاري، وعجبتُ لغفلتي الأولى؛ وجدتُ حكماً ونظماً، وأخذتُ أقارن ذلك بما درست في فلسفة، فوجدت ما جاء به (محمد) – صلى الله عليه وسلم -

أعلى من كل فلسفة، وأن الإلهام الصادق يبدو في كل حديث، فلم أجد إلا أن أقول: أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله."

واقتصر دوره الثقافي على كتابات قصيرة وقليلة جمعها في كتاب "خطرات نفس" ومما يروى أن شخصية الدكتور "إبراهيم عقل" في رواية نجيب محفوظ "المرايا" كانت تجسيداً له... وفي رأيي أن الرجل فعل الصواب والرجوع إلى الحق فضيلة..

السؤال الثامن والعشرون

أعتقد أن الناس في الماضي كانوا في راحة من القضايا التي تنبثق من العلاقات عن بعد عبر الفيس بوك وغيره من التطبيقات حيث الكذب والتدليس في العلاقات العاطفية بين الجنسين والتي قد تؤدي لكوارث كما ترى في بعض حوادث القتل هذه الأيام التي تنشأ عن الثقة الزائدة بين طرفين لم يتقابلا أو يتعارفا إلا من خلال الحاسوب.. علاوة على أن "ناس زمان" كانوا يقدرون الأصول ويضعون اعتبارات للفوارق السنية في مسائل الزواج .

المغامرات العاطفية في زماننا تجمع الجنسين ولا تضع اعتبارات سنية لهذا الموضوع.. هذا حقيقي وهي تختلف عن الماضي في كونها تستأثر بالنصيب الأعظم لكنها تبقى موجودة في كل الأزمنة.. ومن ذكرياتي أني كنت في إحدى الصيدليات وكان مديرها "حمبوزو" يمتلك قدراً لا بأس به من الندالة تستحق أن تدرس.. قضى 25 عاماً في مكانه يخشى أن يطالب بزيادة راتبه حيث أقنعه مدير (فلسطيني مسقط رأسه مصر) أكبر منه أن الانزواء حماية له خشية أن يتذكره صاحب العمل وأن راتبه الحالي يمكن قسمته على ثلاثة صيادلة جدد فيستغني عنه ويجلبهم مكانه.. وبهذه الحيلة صار صاحبنا المدير "حمبوزو" "عصفورة" نشطة كما نقول بلغتنا الدارجة وعينا على جميع زملائه من أجل رضا مديره الذي يغض الطرف عن وجوده بمزاجه! المهم في إحدى الأيام حضرت للصيدلية سيدة مريبة تتجاوز الخمسين من العمر لكنها متصابية بشكل لا تخطئه العين وطلبت مني أن أتظاهر ببيع بعض الأغراض لها وأنّ شاباً ينتظرها في السيارة سيحضر للتو للداخل لدفع الحساب.. ارتبت في الأمر وجلس "حمبوزو" من خلفي يرقب الموقف الغريب في صمت تام منه على غير عادته في هز شعر رأسه الكثيف من فرط ضحكه على نكات لا يضحك عليها سواه.. اعتذرت عن البيع لأني لم أفهم ما المطلوب فعله بالضبط؟! فقالت لي إنّها في مهمة وتقاعسي عن إظهار البيع سيفسدها.. ثوان قليلة ورأيت سيارات الشرطة تطبق على الشاب المنتظر في السيارة فيما تبخر "حمبوزو".. في هذه الثواني شرحت لي السيدة أن الشاب كان يبتزها بعد علاقة سابقة معه وأنها أحضرته لكمين للقبض عليه..

طبعاً لو كنت من مرتادي النزوات النسائية وما أكثرها مع الانفتاح الحالي عبر الإنترنت فحتماً ستقع فريسة لمقالب من بعض الشباب الذين يدعون كونهم فتيات على الفيس بوك بأسماء مستعارة وصور جذابة والهدف أحياناً إما النصب وسلب الأموال بشكل مباشر وهذا في الغالب أو للتصيد والابتزاز بعد وقوع الرجل الولهان في المصيدة.. كنت أظنها ظاهرة حديثة لكن كما يقولون "ما يقع إلا الشاطر" وهذا حال كاتبنا "إبراهيم عبد القادر المازني" حيث ادعى شاب يدعى "عبد الحميد رضا" أنه يعمل خادماً لدى سيدة تدعى "فاخرة" وقد قدم لمكتبه بجريدة السياسة حاملاً رسالة منها تبدي إعجابها بروايته "غريزة امرأة" وأنها كتبت مثلها ولم تخرجها للناس وتستأذنه في نسخة من روايته وتقول: "فهل تأذن؟ أرجو أن تبعث لي بشيء من آثارك مع (تابعي) وقد يكون كتابي هذا ركيكاً وغير معبر تماماً عن روح الإعجاب الذي ملك نفسي وأخذ بتلابيب قلبي وقد يكون لي خير من هذا يوم أن نتعرّف أجساداً وأرجو أن أوفّق إلى ما يتناسب وقدرك السامي.. فاخرة.".

تجاوب المازني مع الرسالة فرد قائلاً: "سيدتي الفاضلة: تحياتي إليك وشكري على رسالتك الرقيقة الكريمة، واعتذاري عن الكتابة بالقلم الرصاص فإني أولاً مريض، وثانياً ليس في بيتي حبر! وثقي أني أقدّر نبل الإحساس الذي دفعك إلى كتابة هذه الرسالة ولولا أني مريض متعب ويدي ترتعش قليلاً من الضعف لحاولت أن أوفيها حقّها من الشكر، فهل تقبلين عذري وتغفرين لي كل هذه الزلات؟ أرجو ذلك، ويسرني أن أبعث إليك بنسخة من كل كتاب لي توجد منه نسخ في البيت، إجابة لطلبك، ومن بواعث أسفي أنّ نسخ الرواية في مكتبي، فإذا سمحت بإرسال تابعك يوم السبت إلى المكتب فإني أكون سعيداً بأن أقدم لك نسخة منها، ولقد شوقتني إلى روايتك، ولكني لا أجرؤ أن أطمح في الاطلاع عليها قبل نشرها إلا إذا شئت أن تغمريني بفضلكِ... كلا، ليس في لغتك ركاكة، ولكنها سليمة جداً، ومن أرقى ما عرفت من أساليب الرسائل النسوية، أرقى من رسالتي هذه مثلاً، وسلامي إليك وتحياتي وشكري الجزيل وأسفي الشديد... المازني."

وتوالت الرسائل.. ومنها: "عزيزتي الآنسة فاخرة هانم... أظن أنك حيرتني، حيرتني جداً إلى حد- لا تضحكي من فضلك -إلى حد أني بدأت أظن أن الذي يراسلني ليست آنسة ذكية القلب نافذة البصيرة، بل هو شاب داهية يكاتبني باسم آنسة ليتفكه بي ويسخر مني، فما رأيك في هذا الخاطر. أعترف لك أنه خاطر

جرى ببالي من أول يوم وهذا هو السبب في التحرز الشديد الذي بدا مني في رسائلي الأولى -على الأقل رسالتي الأولى- ولكني تساهلت مع نفسي وأرسلتها على سجيتها إلى حدّ محدود، فهل تدرين السبب في نشوء خاطر كهذا في رأسي.. السبب أنني كنت ولا أزال أعتقد أنه ليس في هذه الدنيا امرأة يمكن بأي حال من الأحوال أن يعجبها إبراهيم المازني ولست أقول هذا تواضعاً أو على سبيل المزاح، ولكني أقوله لأنه عقيدة راسخة مخامرة لنفسي مع الأسف، وقد كانت نتيجة هذه العقيدة أني كما أخبرتك في رسالتي الماضية تحاشيت في حياتي أن أحاول التحبب إلى أية امرأة ولو كانت روحي ستزهق من فرط حبي لها، ذلك أني -لاعتقادي في نفسي- أخشى أن أتلقّى صدمة فتكون النتيجة أن تجرح نفسي فتثور فأتعذب وأعذبها معي.. لا أدري.. كيف يكون رأيك في رجل هذه حالته النفسية بلا مبالغة، وإني أقسم لك بكل ما يحلف به الأبرار أني لست كاذباً، ولا متخيلاً. وأن هذه هي حقيقة اعتقادي في نفسي وحقيقة الواقع ولا شك أنها حالة شاذة - ولكن ما حيلتي؟ وأنا أخسر بسببها كثيراً ما يفوز به الرجال، وأرى مفاتن الحياة تتخطاني وتقع على سواي بغير سعي منه لها، فلا أتحسر لأني رضت نفسي على الحرمان ووطنتها على ألا تأسف على شيء، وما أكثر ما يفوتني وأحرمه في دنياي في كل باب حتى في باب المعيشة المادية ولكن ماذا أصنع؟ لا شيء.. صرت أتفلسف وأقول إن رياضة النفس على الزهد تتطلب قوة نفسية أكبر وأعظم من القوة التي يحتاج إليها الإقدام على التمتع بلذات الحياة وأنعم العيش، فهل هذا صحيح؟ لا أدري، ولكني أرى أني لم أطق باريس أكثر من ربع الساعة ولا لندن أكثر من أسبوع. وأحببت الريف والبساطة وكنت في رحلتي أفضل أن أجوب الريف بسيارة صديق أحمل فيها طعامي وأبيت أحياناً كثيرة فيها بعد إغلاق نوافذها، لقد قلت مرة لصاحبة اجتمعت بها على ظهر السفينة: يا سيدتي إنك جميلة وحرام عليك أن تلقي بجمالك بين يدي حمار مثلي لا يعجبه إلا البرسيم... هي مرارة نفس تطفح أحياناً وتقطر من اللسان أو من القلم، ولكني ربما كنت معذوراً، ولعلي أكون أسعد في حياتي لو عشت في كهف بعيداً عن الناس. أي نعم، وقد حاولت هذا مرة وقضيت بضعة أسابيع في جبل المقطم على إثر صدمة قوية تلقيتها من يد القدر، وكنت أشرب الماء بحفنتي من كفيّ وآكل من شبه ماجور من الطين فهل تصدقين؟! إني رجل أحفظ الجميل ولا أكفره، ولا أجحد فضل الله وفضلك عليّ، فإذا كنت قد وجدت في ردي ما يشعر أني تألمت فإني آسف جداً وأرجو أن تحملي هذا على محمل المرارة التي في

نفسي، وهي مرارة طبيعية لا تتأثر بشيء من الخارج أبداً فسامحيني بالله واعفي عني واغفري لي زلاتي وكوني معي على الدنيا.. ألم أقل لك إني جاهل؟ بلى. وإني لأجهل الجهلاء وأبلد البلداء فهل صح عزمك على أن تتفرجي على هذا الجاهل الغبي وتريه بعينك يوم الأحد؟ وسلامي وتحياتي وأشواقي وشكري العميق وما هو فوق الشكر والتحيات والأشواق وأبلغ من كل ذلك.. المازني".
طبعاً اعتذرت "فاخرة" عن الموعد لأنه مستحيل وأرسلت له رواية قصيرة بعنوان "فاخرة والمازني" لتلهب مشاعره وتزيد اشتياقه وبدأت أعراض الحب العفيف تتملكه فكانت رسائلها تحت "مخدته" يطالعها كل يوم كما جهز رواية يرد بها على روايتها.. وفي رسالة منه يعتبر أن تخلفها عن لقائه عقاب ويقول: "فلا شك أني أستحق ذلك العقاب وفيك تلتقي الجنة والنار وعندك تجد نفسي الرضوان والعذاب وقد ذقت طعم الجنة وفزت ببعض العذاب".. وأرسل لها صورته القديمة بناء على طلبها فردت "فاخرة" بأن أرسلت صورتها.. فكتب إليها "المازني": "أنا أكتب الآن على عجل كأني أخاف أن لا... لا... لا أخاف شيئاً بل أتمنى أن أنقلب زفرة... تنهدة تطير إليك على جناح النسيم وتشعرك بما في قلبي... وليت أن أزفر روحاً تكشف عن حقيقة أمري.. فاخرة!! أسأل الله السلامة من كل هذا الحسن.. السلامة؟ وأي أمل فيها؟ لقد كان ما خفت أن يكون وانتهى الأمر، أحببتك خيالاً، وهأنذا اليوم أحبك إنسانة.. حقيقية وقعت، لا بل رفعني الله إلى سماء كنت أتخيلها.
إن مثل هذا الحب نعمة يا فاخرة، ومثل حبي لك مفخرة لي ورفعة لنفسي وسمو أنت ما زلتِ معنى سامياً.. لم تتجسدي لي قط على الرغم من الصورة. كل ما أرتنيه الصورة أن ظني لم يخب... وأن الحقيقة أكبر وأفتن وأسحر من الخيال.. تريدين أن تقابليني لتكرهيني وأكرهك؟!.. نعم ستكرهينني وسأشقى بكرهك لي وحبي لك.. هذا قضاء الله ولا راد لقضائه.. وقد طلبت الآن "ويسكي" فإني مضطرب.. سأصير بعد أيام عاري القلب" ...
المؤلم أنه وبعد هذا البوح النفسي الذي أظهر ضعف الرجل ومكنون قلبه تجاه تجربة حب عن بعد وشعوره الخفي أنه قصير، دميم واستكثاره على نفسه حب امرأة جميلة له واقتناعها به خاصة وقد أصيب بالعرج في شبابه في حادثة وهو يعطي العلاج لزوجته المريضة.. كانت صدمة عمره أن ما حاشاه وأنكره كان حقاً وأن الرسائل كانت احتيالاً من الشاب الخادم لفضحه على الملأ.. ونشرت

الرسائل في الأوساط الأدبية في حدود عام 1932م .. ولا أشك أن هذه الفضيحة قد سببت جرحاً غائراً لدى المازني.
بقي سؤال: ما هي دوافع الشاب "عبد الحميد رضا" لما فعله بالمازني؟!!
يكشف الأستاذ "طاهر الطناحي" في مجلة الهلال (الجزء العاشر ،المجلد57) في أول أكتوبر 1949م، أن "عبد الحميد رضا " أديب شاب وصديق له منذ مرحلة التلمذة وأنه جاءه ذات يوم وكان قد خرج من تجربة عاطفية فاشلة وآلمه هجر الحبيبة فسخط على نفسه وكره صنف النساء وأراد أن يوقع بأحد الأدباء في تجربة مماثلة ووقع اختيارهما معاً على "المازني" المسكين!

عزيزي القارئ: أرجو بعد أن تقرأ هذا الجزء أن تعيد القراءة بإمعان في مقالي "الحب في رمضان.. نظرة أخرى" بكتابي "رواق القصص الرمضاني."

السؤال التاسع والعشرون

في كتاب "بلوغ المرام في أحداث ووقائع رمضان" تحدثت عن ميل الرجل المصري للتشاؤم فهل المرأة المصرية بعيدة عن هذه الخصلة؟

في دراسة حديثة أجراها علماء الأعصاب بمعهد "ماساتشوستس للتكنولوجيا" بالولايات المتحدة الأمريكية عام 2018م لتحديد المنطقة المسؤولة في المخ عن الشعور بالتشاؤم ونشرتها مجلة" Neuro" وجد أنها منطقة "النواة الذنبية أو المذنّبة" وهي المرتبطة باتخاذ القرار العاطفي وفرط تحفيزها بواسطة تيار كهربائي بسيط من شأنه التسبب في القلق والاكتئاب وهي البواعث على التشاؤم. ويحاول العلماء الربط بين هذا التحفيز وحدوث خلل أو تعطيل في هرمون "الدوبامين" المسمى هرمون السعادة عند الإنسان كتفسير مقترح للتشاؤم.
تتلخص التجربة التي أجراها كبير الباحثين البروفيسور "آن جريبيل" وفريقه باستخدام واحدة من عمليات صنع القرار تعرف بنهج تجنب النزاع حيث توضع فئران التجربة في حالات ومواقف يتوجب عليها فيها الاختيار بين بديلين واتخاذ قرارها بموازنة الجوانب الإيجابية والسلبية لكل بديل وهو ما يعرض أدمغتها لجهد كبير.
والطبيعي أن تختار الفئران الخيارات التي تمنحها مكافئة أعلى بصرف النظر عن الخطورة لكن بعد تحفيز النواة شوهدت تغيرات في موجات الدماغ فتضاءلت قيمة المكافئة في أعين الفئران لأنها ركزت بعد التحفيز على النتائج والعوامل السلبية أكثر مما ركزت على المكافأة ذاتها..
من التفسير العلمي وأنا أصدق العلم واحترمه فلا فارق كبير في التشاؤم بين الرجل والمرأة عموماً.. والمجتمع المصري في كل أزمنته يعج بصور التشاؤم بوجه عام وحسبنا أن نورد أمثلة من أرشيف الصحافة المصرية الذي نصب تركيزنا عليه لنعيد اكتشافه كمرآة صادقة للمجتمع..
المثال الأول: تصدرت مجلة "روز اليوسف" في 15 سبتمبر 1927م صورة الفنانة "زينب صدقي" -ذات الأصول التركية والتي حازت لقب ملكة جمال مصر بعدها بثلاث سنوات - وهي بلباس الحمام واصفة المجلة الصورة بالنحس!!

وتعلل المجلة ذلك من أنها أعدت الصورة لتتصدر غلاف العدد 95 وبينما هي معدة الطبع جاء خبر وفاة فقيد الأمة الزعيم سعد زغلول باشا في 23 أغسطس 1927م فكان الظرف غير ملائم وتم إرجاء نشر صورتها ونشرت صورة الفقيد بدلاً منها.. ومر أسبوع وبينما العدد 96 يتأهب للصدور وعليه صورة "زينب صدقي" جاءت وفاة زميلهم فقيد المسرح عبد المجيد فوضعت صورته بدلاً منها مما جعل المجلة تستشعر التشاؤم وتبدي عدم اطمئنانها إلا بعد تمام الطبع وظهور العدد المحتوي على صورة "زينب صدقي" بالأسواق وتداعب قراءَها بالقول: "كما أننا نحمل زينب صدقي مسؤولية أية مصيبة تحل بنا أو تنزل بأحد أعزائنا بسبب نشر الصورة النحس."

المثال الثاني:

ما تناقلته الصحف حول "سلسة ذهب" كانت ترتديها الفنانة "ميمي شكيب" في قدمها في تقليد للخلخال الذي ترتديه الفلاحات الذي شاهدته في الصغر وتعلقت به إلى حد صنع "دوبارة" من الخيط على شاكلته ووضعتها بقدمها وجاهدت أمها وكذلك مدرسة الراهبات التي كانت ملتحقة بها لإقناعها بترك هذه العادة التي لازمتها طوال حياتها مع فارق واحد أنها استبدلت الدوباره عندما كبرت بسلسلة من الذهب لم تخلعها طيلة حياتها لشعورها بالتشاؤم وأنّ المرة الوحيدة التي خلعتها.. حدث ما لم يكن في الحسبان حيث تقول: "وبعد لحظات كنت فى المستشفى بعاني من المصران الأعور.. ومن يومها حرمت أقلعها."

ولقد كان الإسلام سباقاً في صرف نظر المؤمن عن النظر بمثل هذه النظرة لشؤون حياته فكان التوجيه الإسلامي بارتياد طريق التوكل على الله وإنجاز الأعمال والشؤون بالأخذ بالأسباب والإيمان بأن المقادير من صنع الله ولا راد لها سواه ونبذ التطير وهو أن يرجع المرء عن حاجته إن رأى أو سمع شيئاً يكرهه والتصرف بشكل عملي يليق بمجتمع عقلاني ومنتج..

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل، وينهى عن الطيرة فيقول: "إنها لا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك" وإذا وقع في قلبه شيء، يقول: "اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك". "اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك.. "

ومع ذلك يرخص الإسلام التشاؤم من ثلاث: المرأة والبيت (الدار) والدابة (الفرس) ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر: سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه

وسلَّمَ يقولُ: "إنَّما الشُّؤْمُ في ثَلاثَةٍ: في الفَرَسِ، والمَرْأَةِ، والدَّارِ". والأولى في هذا الحديث الأخذ برأي السيدة عائشة رضي الله عنه زوج النبي صلى الله عليه وسلم والتي غضبت حينما سمعته وأنكرته وأزالت اللبس حوله فروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن محمد بن راشد عن مكحول قال: قيل لعائشة إنّ أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشؤم في ثلاثة فقالت لم يحفظ إنه دخل وهو يقول قاتل الله اليهود يقولون الشؤم في ثلاثة فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله، (جاء تعليق الحافظ ابن حجر في فتح الباري: قلت ومكحول لم يسمع من عائشة فهو منقطع) لكن روى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة عن أبي حسان أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا: إنّ أبا هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الطيرة في الفرس والمرأة والدار فغضبت غضباً شديداً وقالت: ما قاله وإنما قال إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك.

السيرة الذاتية للكاتب والباحث والروائي محمد فتحي عبد العال

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (القصص:٢٤)

د. محمد فتحي عبد العال

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام 1982

المؤهلات العلمية:

1- بكالوريوس "صيدلة" جامعة الزقازيق 2004.

2- دبلوم الدراسات العليا في "الميكروبيولوجيا التطبيقية" جامعة الزقازيق2006 .

3- ماجستير في "الكيمياء الحيوية" جامعة الزقازيق 2014.

4- دبلوم الدراسات العليا في "الدراسات الإسلامية "من المعهد العالي للدراسات الإسلامية2017 .

5- شهادة "إعداد الدعاة" من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف 2017.

6- دبلوم مهني في "إدارة الجودة الطبية الشاملة" من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية 2017.

محتويات الكتاب

إهداء 6

مقدمة 7

الأسئلة والأجوبة 9

السؤال الأول 9

السؤال الثاني 13

السؤال الثالث: 14

السؤال الرابع 18

السؤال الخامس 20

السؤال السادس 24

السؤال السابع 28

السؤال الثامن.....37

السؤال التاسع.....54

السؤال العاشر.....55

السؤال الحادي عشر.....69

السؤال الثاني عشر.....72

السؤال الثالث عشر.....73

السؤال الرابع عشر.....76

السؤال الخامس عشر.....78

السؤال السادس عشر.....86

السؤال السابع عشر.....87

السؤال الثامن عشر.....88

السؤال التاسع عشر.....89

السؤال العشرون.....92

السؤال الواحد والعشرون.....95

السؤال الثاني والعشرون.....97

السؤال الثالث والعشرون 99

السؤال الرابع والعشرون 101

السؤال الخامس والعشرون.....106

السؤال السادس والعشرون.....108

السؤال السابع والعشرون.....111

السؤال الثامن والعشرون.....114

السؤال التاسع والعشرون.....119

السيرة الذاتية للكاتب والباحث والروائي محمد فتحي عبد العال.....122

محتويات الكتاب.....123

(تجليات التواصل الفعال)
شج رأس التاريخ
د. محمد فتحي عبد العال
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.